نجيب محفوظ

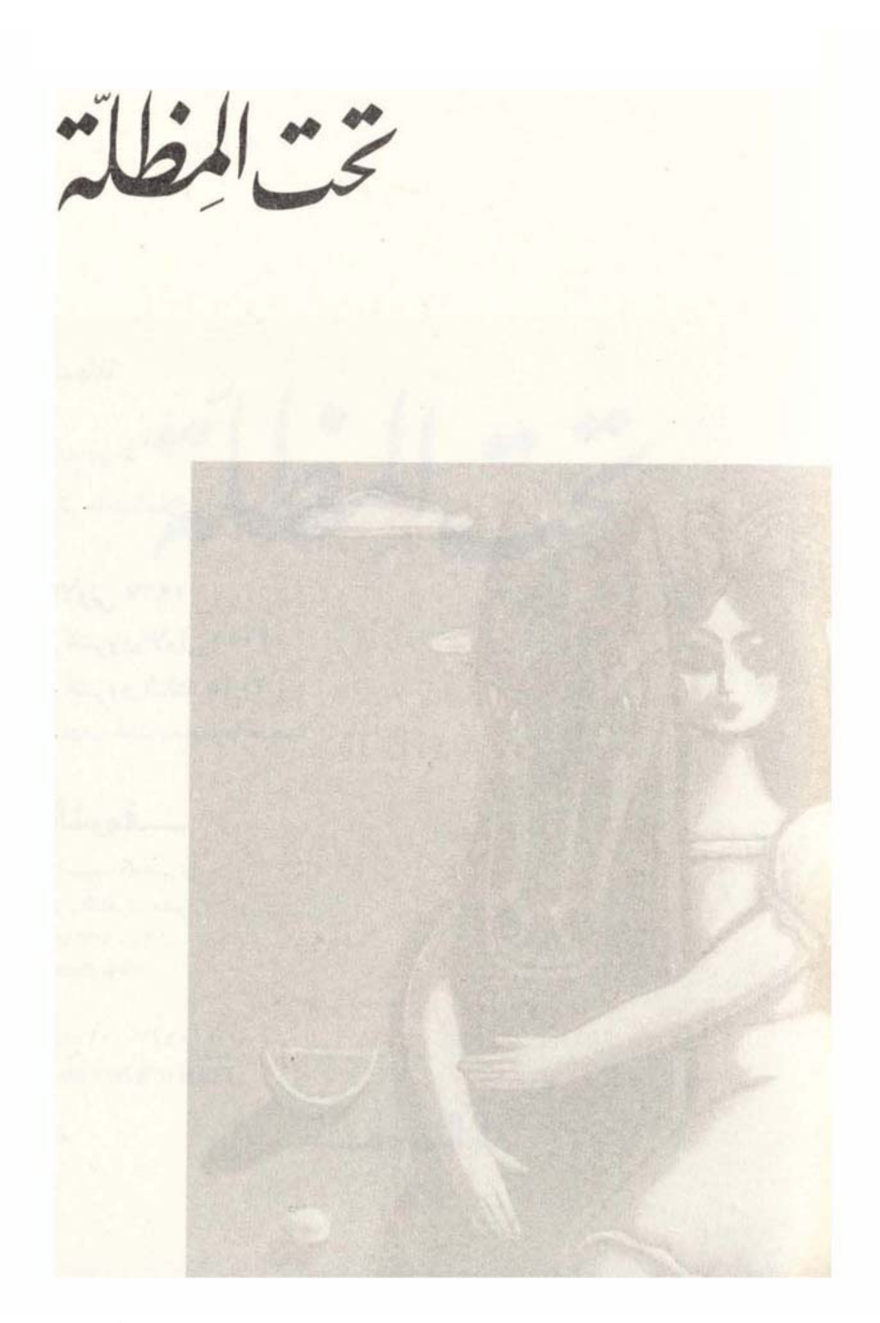
تحت المظلّة



نجيب محفوظ

تحت المِظلّة

دار الشروق


تحت المِظلّة

تحت المظلة

نجيب محفوظ

إخراج ولوحات الغلاف : حلمي التوني

الطبعـة الأولى ١٩٦٧

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٦

طبعة دار الشروق الثالثة ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب / مجموعة قصصية

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٠٠١٢
ISBN 978-977-09-1581-3

المحتويـــات

تحت المظلة

انعقد السحاب وتكاثف كليل هابط ثم تساقط الرذاذ. اجتاح الطريق هواء بارد مفعما بشذا الرطوبة. حث المارة خطاهم غير نفر تجمعوا تحت مظلة المحطة. وأوشكت الرتابة أن تجمد المنظر لولا أن اندفع رجل. اندفع راكضا كالمجنون من شارع جانبى واختفى فى شارع آخر على الجانب الآخر. تبعه على الأثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون «لص .. أمسكوا اللص». وما لبثت الضجة أن خفت رويدا حتى ماتت وتتابع الرذاذ. وخلا الطريق أو كاد أما المتجمعون تحت المظلة فبعضهم ينتظر الباص والبعض لاذ بها خوف البلل. وبعثت ضجة المطاردة مرة أخرى وتدانت فى اشتداد وتضخم ثم ظهر المطاردون وهم يقبضون على اللص ومن حولهم الغلمان تهلل بأصوات رفيعة حادة. وعند عرض الطريق فى المنتصف حاول اللص الإفلات فأمسكوا به وانهالوا عليه صفعا ولكما فمن شدة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق. وشدت أعين الواقفين تحت المظلة إلى المعركة.

- يا لها من ضربات قاسية عنيفة!

- ستقع جريمة أشد من السرقة!

- انظروا.. الشرطى واقف فى مدخل عمارة يتفرج.

- بل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى..

واشتد الرذاذ فتواصل أسلاكا فضية برهة ثم انهمر المطر. خلا

الطريق إلا من المتعاركين والواقفين تحت المظلة . نال الإعياء من الرجال فكفوا عن تبادل الضربات ولكنهم أحاطوا باللص . وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون . ثم انغمسوا فى مناقشة هامة لم يميزها أحد دون مبالاة بالمطر . التصقت الملابس بأجسادهم ولكنهم واصلوا النقاش بإصرار وبلا أدنى اكتراث بالمطر . ووشت حركات اللص بحرارة دفاعه ولكن لم يصدقه أحد . ولوح بذراعيه فكأنما يخطب ولكن ضاع صوته فى البعد وانهلال المطر . إنه بلا شك يخطب . وها هم يصغون إليه . تطلعوا إليه خرسا تحت المطر . وظلت أعين الواقفين تحت المظلة مشدودة إليهم .

- كيف أن الشرطى لا يتحرك!

- لذلك خطرت فكرة . . أن يكون الحدث منظر تصوير سينمائى!

- لكن الضرب كان حقيقيا .

- والمناقشة والخطابة تحت المطر؟!

شىء طارئ جذب النظر . فمن ناحية الميدان انطلقت سيارتان فى سرعة جنونية . مطاردة حامية فيما بدا . المقدمة تطير طيرا والأخرى توشك أن تدركها . وإذا بالمتقدمة تفرمل بغتة حتى زحفت فوق أديم الأرض فصدمتها الأخرى صدمة عنيفة مدوية . انقلبتا معا محدثتين انفجارا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران . وارتفع صراخ وأنين تحت المطر المنهمر . ولكن لم يهرع أحد من المحدقين به إلى بقايا السيارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد أمتار منهم . لم يبالوا بهما كما لا يبالون بالمطر . ولمح الواقفون تحت المظلة آدميا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت سيارة ملطخا بالدم . حاول النهوض على أربع ولكنه سقط على وجهه سقطة نهائية .

- كارثة حقيقية بلا أدنى شك .

- الشرطى لا يريد أن يتحرك!

- لابد من وجود تليفون قريب.

ولكن أحدا لم يبرح مكانه خشية المطر. وقد انهل انهلالا مخيفا وقعقع الرعد. وانتهى اللص من خطابه فوقف ينظر إلى مستمعيه بثقة واطمئنان. وفجأة راح يخلع ملابسه حتى تجرد عاريا. رمى بملابسه فوق حطام السيارتين اللتين أطفأ نيرانهما المطر. دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العارى. تقدم خطوتين وتأخر خطوتين وبدأ يرقص فى رشاقة احترافية. وإذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات إيقاعية على حين تشابكت أذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم فى دائرة متماسكة. وذهل الواقفون تحت المظلة ولكنهم رغم ذلك استردوا أنفاسهم.

- إن لم يكن منظرا تصويريا فهو الجنون!

- منظر سينمائى بلا ريب وما الشرطى إلا أحدهم ينتظر دوره.

- وحادث السيارتين؟

- براعة فنية وسوف نكتشف المخرج فى النهاية وراء إحدى النوافذ.

فتحت نافذة فى عمارة مواجهة للمحطة محدثة صوتا لافتا للنظر. لفتت الأنظار رغم التصفيق وانهمار المطر. ظهر بها رجل كامل الزى فصفر صفيرا متقطعا. وفى الحال فتحت نافذة أخرى فى نفس العمارة فظهرت بها امرأة متأهبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره بإشارة من رأسها. اختفيا معا عن أنظار الواقفين تحت المظلة. وبعد قليل غادرا العمارة معا. سارا متشابكى الذراعين بلا مبالاة تحت المطر. وقفا عند السيارتين المهشمتين. تبادلا كلمة. أخذا يخلعان ملابسهما حتى تعريا تماما تحت المطر. استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثة القتيل المنكفئ على وجهه. ركع الرجل إلى جانبها. بدأ غزل رقيق

بالأيدى والشفاة. ثم غطاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحب. وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهمار المطر.

- فضيحة!

- إن لم يكن تصويرا فهو فضيحة، وإن يكن حقيقة فهو جنون.

- الشرطى يشعل سيجارة.

واستقبل الطريق شبه الخالى حياة جديدة. جاءت من الجنوب قافلة من الجمال. يتقدمها حاد ويقودها رجال ونساء من البدو. عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللص الراقص. شدت الجمال إلى أسوار البيوت ونصبت الخيام. وتفرقوا فمنهم من تناول طعامه أو راح يحتسى الشاى أو يدخن وبعضهم غرق فى السمر. ومن الشمال جاءت مجموعة من سيارات السياحة محملة بالخواجات. توقفت فيما وراء حلقة اللص ثم غادرها راكبوها من الرجال والنساء فتفرقوا جماعات تستطلع المكان فى نهم دون مبالاة بالرقص أو الحب أو الموت أو المطر.

ثم أقبل عمال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالأحجار والأسمنت وأدوات البناء. وبسرعة مذهلة شيدوا قبرا رائعا، وعلي مقربة منه أقاموا من الأحجار سريرا كبيرا، فغطوه بالملاءات وزينوا قوائمه بالورد، كل ذلك تحت المطر. ومضوا إلى حطام السيارتين فاستخرجوا منه الجثث، مهشمة الرءوس محترقة الأطراف، وضموا إليها جثة المنكفىء على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكفا عن ممارسة الحب، ثم رصوا الجثث فوق السرير جنبا إلى جنب، وتحولوا إلى العاشقين فحملوهما معا وهما لا ينفصلان فأودعوهما القبر ثم سدوا فوهته وأهالوا عليهما التراب حتى سووها بالأرض. استقلوا بعد ذلك اللوريات فانطلقت بهم فى سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميزه أحد.

ـ كأننا فى حلم!

ـ حلم مخيف، ويحسن بنا أن نذهب.

ـ بل علينا أن ننتظر.

ـ ماذا ننتظر؟

ـ النهاية السعيدة؟!

ـ السعيدة؟!

ـ وإلا فبشر المنتج بكارثة!

فى أثناء الحديث تربع فوق القبر رجل يرتدى روب القضاء. لم ير أحد من أين أتى. من عند الخواجات أو من عند البدو أو من حلقة الرقص لم يعرف أحد. بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصا كأنما ينطق بحكم. لم يميز كلامه أحد إذ غطى عليه التصفيق وضوضاء الأصوات بشتى اللغات والمطر. ولكن كلماته غير المسموعة لم تضع فانتشرت فى الطريق حركات كالأمواج الصاخبة فى عنف وتضارب. نشبت معارك فى محيط البدو وأخرى فى مواقع الخواجات. واشتعلت معارك بين بدو وخواجات. وجعل آخرون يرقصون ويغنون. وأقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحب عرايا. وأخذت النشوة اللص فتفنن فى رقصه وأبدع. واشتد كل شىء وبلغ غايته. القتل والرقص والحب والموت والرعد والمطر.

واندس بين الواقفين رجل ضخم. عارى الرأس يرتدى بنطلونا وبلوفر أسود وبيده منظار مكبر. شق مكانه بينهم بعنف واستهتار. وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجولا به بين الأركان. وتمتم:

ـ لا بأس.. لا بأس..

تعلقت به أعين المتجمعين تحت المظلة باهتمام:

ـ هو؟

ـ نعم . . هو المخرج .

وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغما :

ـ استمروا بلا خطأ وإلا اضطررنا لإعادة كل شيء من البدء . . .

عند ذاك سأله أحدهم :

ـ هل سيادتك . . .

ولكنه قاطعه بإشارة عدائية وحاسمة فازدرد الرجل بقية سؤاله وسكت ولكن آخر استمد من توتر أعصابه شجاعة فسأله :

ـ حضرتك المخرج؟

لم يلتفت إليه وواصل مراقبته . وإذا برأس آدمي يتدحرج نحو المحطة فيستقر على بعد أذرع منه والدماء تتفجر من مقطع العنق بغزارة . صرخ الرجال فزعا أما الرجل فحدق بالرأس مليا ثم غمغم :

ـ برافو . . برافو . .

وصاح به رجل :

ـ ولكنه رأس حقيقي ودم حقيقي .

فوجه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحب ثم هتف نافد الصبر :

ـ غير الوضع . . حذار من الملل . . .

ولكن الآخر صاح به :

ـ ولكنه رأس حقيقي ، فمن فضلك فهمنا .

وآخر قال :

ـ كلمة واحدة منك تكفي لنعرف من أنت ومن هؤلاء . . .

وثالث قال بتوسل :

ـ لا شيء يمنعك من الكلام!

ورابع تضرع قائلا :

ـ يا أستاذ لا تضن علينا براحة البال .

ولكن الأستاذ تراجع فى قفزة مباغتة . كأنما كان يدارى نفسه خلفهم . ذاب الصلف فى نظرة مترقبة . وتوارت نفخته . كأنما طعن به السن أو تردى فى مرض . رأى المتجمعون تحت المحطة نفرا من الرجال ذوى هيئة رسمية يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تشمم . واندفع الرجل راكضا مجنونا تحت المطر . انتبه إليه رجل من المتجولين فاندفع أيضا صوبه يتبعه الآخرون كعاصفة . وسرعان ما اختفوا جميعا عن الأنظار . مخلفين الطريق للقتل والحب والرقص والمطر .

ـ يا ألطاف الله ! . . لم يكن المخرج كما توهمنا .

ـ من يكون؟

ـ لعله لص . .

ـ أو مجنون هارب !

ـ أو لعله ومطارديه ضمن المنظر السينمائى .

ـ هذه أحداث حقيقية لا علاقة لها بالتمثيل .

ـ ولكن التمثيل هو الفرض الوحيد الذى يجعلها معقولة على نحو ما .

ـ لا داعى لاختلاق الفروض .

ـ فما تفسيرك لها؟

ـ هى حقيقة بصرف النظر .

ـ كيف أمكن أن تقع؟

ـ هى واقعة .

ـ يجب أن نذهب بأى ثمن .

ـ سندعى للشهادة عند التحقيق .

ـ ثمة أمل باق . .

قال ذلك واتجه ناحية الشرطى وصاح :

ـ يا شـاويش . .

كرر النداء أربعا حتى انتبه إليه الرجل . فقطب متنحنحا فأشار إليه يستدعيه قائلا :

ـ من فضلك يا شاويش . .

نظر الشرطى إلى المطر متسخطا ثم حبك المعطف حول جسمه ومضى نحوهم مسرعا حتى وقف تحت المظلة . تفحصهم بقسوة متسائلا :

ـ ما شـأنكم؟

ـ ألم تر ما يحدث فى الطريق؟

لم يحول عينيه عنهم وقال :

ـ كل من كان فى المحطة استقل سيارته إلا أنتم فما شأنكم؟

ـ انظر إلى هذا الرأس الآدمى!

ـ أين بطاقاتكم؟

ومضى يتحقق من شخصياتهم وهو يبتسم ابتسامة ساخرة قاسية ثم سألهم :

ـ ماذا وراء اجتماعكم هنا؟

تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم :

ـ لا يعرف أحدنا الآخر!

ـ كذبة لم تعد تجدى . .

تراجع خطوتين . . سدد نحوهم البندقية . أطلق النار بسرعة وإحكام . تساقطوا واحدا فى إثر الآخر جثة هامدة . انطرحت أجسادهم تحت المظلة أما الرءوس فتوسدت الطوار تحت المطر .


النـــــوم

هذه النخلة الوحيدة فى الفناء الترب تذكر بحوش قرافة، يجرى ذلك فى خاطره كلما مر عبر الفناء إلى باب البيت الخارجى واعترضه صاحب البيت وهو يرش الأرض بالخرطوم، ناداه قائلا:

ـ أستاذ.

اللعنة. أبغض يوم عنده يوم يصبح على وجهه. عجوز ناعم، يفتر فوه أحيانا عن ابتسامة كشق فى لحاء شجرة.

ـ أنت شاب وحيد ولكنك مهذب طيب السمعة، لا شكوى من ناحيتك. فبالله ما معنى الجلسات التى تعقد فى شقتك لتحضير الأرواح؟!

ـ هل أستجوب عما يدور داخل شقتى؟

ـ نعم، إذا امتد أثره إلى من حولك، ثم إن لى حقا فى مخاطبتك باسم صداقتى القديمة للمرحوم والدك..

انطبع الامتعاض فى صفحة وجهه فقال صاحب البيت:

ـ لم أرك مرة واحدة فى صلاة الجمعة!

ـ وما دخل ذلك فى موضوعنا؟

ـ المؤمن لا يهتم بهذه الألاعيب، هذا ما أعنيه!

ضحك الشاب ضحكة قصيرة وقال:

ـ ولكن الاهتمام بذلك يعنى الإيمان بالأرواح .

ـ كلا . يعنى الشك أولا وأخيرا .

فغير الحديث قائلا :

ـ أذكرك بجدار دورة المياه .

ـ لا تتهرب ، الحق أن هذه الجلسات تحدث بين السكان اضطرابا غير مستحب .

ـ أنا لا أرتكب فعلا مخالفا للقانون ، وأرجو أن الجدار . .

ـ من الأفضل أن نبقى على وفاق .

ثم قال وهو يدفع بماء الخرطوم إلى بعيد :

ـ أما عن أى إصلاح فعليك أن تقوم به بنفسك .

ما أبغض أن يصبح على وجهه يوم العطلة . والطريق شبه خال كشأنه فى بواكير العطلات . وثمة سقيفة من السحاب الثابت تمتد فوق الضاحية . واشتد عليه ثقل رأسه عقب ليلة لم ينم فيها أكثر من ساعتين . فبعد انفضاض حلبة التحضير قال لزميله مدرس التاريخ :

ـ يطيب الآن الحديث فى المصير . .

وتقضى الليل دون أن يجنوا من النقاش ثمرة . وقال له صديق ضاحكا وهو يغادر الشقة قبيل الفجر :

ـ خير حل أن تتزوج !

وآوى إلى فراشه قلقا ووجه محبوب يتراءى لعينيه . لا ينبغى أن تبقى النخلة وحيدة إلى الأبد . ولم كانت أمه تؤكد له دائما قبيل وفاتها بأيام بأن كل شىء يدعو للحمد؟ . . وجد الكازينو خاليا فى تلك الساعة المبكرة . واتخذ مجلسه عند مدخل الحديقة الفاصلة بين الكازينو ومحطة الديزل . حياه الجرسون وجاءه بالجرائد . أعد له مع القهوة سندويتش فول فبعد أن شبع ثقل رأسه أكثر وأكثر حتى عجب أين كان النوم وهو

يستجديه فى فراشه. وتذكر درس المفعول المطلق الذى سيلقيه غدا صباحا على تلاميذه فتذكر بالتالى زميله مدرس التاريخ، قرينه فى المناقشات الجنونية.

- ولكن ما معنى ذلك؟

- أنت مدرس عربى، حسن هل عرفت فعلا بلا فاعل..؟

- اللغة بحر بلا حدود.

- مات محمد، محمد فاعل، ولكن أى فاعل هذا؟!، ولذلك فإنى أبحث عما أريد خارج نطاق اللغة..

وجاء الجرسون لينظف الرخامة فسأله:

- كيف تبرر مطالبتك الزبائن بأثمان الطلبات؟

ابتسم الرجل ابتسامة المعتاد لهذه الأسئلة الغريبة، ثم تناول قروشه ومضى. وقال هو لنفسه: «إنه يبتسم ابتسامة العقلاء، ومع ذلك فما لم نعرف كل شىء فستظل معرفتنا الأشياء الصغيرة القريبة ناقصة وغير مبررة». ورنا إلى السحب حتى ابيض كل شىء فى عينيه. ولكن البياض لم يثبت على حال، لعبت به يد ساحرة، تميع وتموج، واستحال لونا معتما بلا شخصية ولا شكل. واختفى قطار الديزل الواقف فى المحطة أو ذاب فى السحاب. وبدافع من رغبته فى الهدوء المطلق مثل بين يدى بوذا فى الحديقة اليابانية. وسمع صديقه مدرس التاريخ يقول وهو يشير إلى بوذا «الهدوء والحقيقة والانتصار»، ثم أكد قوله مكررا: «الهدوء والحقيقة والهزيمة». وجمع عزيمته على المناقشة ولكن أوراق الشجر اهتزت بصرخة حادة. صرخة طفل أو لعلها صرخة امرأة. وخفق قلبه وانتعش بروح الغزل. وأراد أن يستشهد ببيت من عمر الخيام ولكن هيهات. وناداه صوت. التفت نحو مصدره فرأى صديقه الآخر وقد بادره قائلا: «خير حل أن تتزوج». وأطبق عليه وقع أقدام راكضة.

وركض ليلحق بالديزل فزلت قدمه وتهاوى من فوق الطوار. رباه كيف اكتظ المكان بهؤلاء الناس! .. عشرات وعشرات وعشرات يقفون خارج سور الحديقة الصغيرة. وقوة من الشرطة تعسكر فوق طوار المحطة. حدث تحت السحاب الراكد؟ .. وها هو الجرسون راجعا من الزحام إلى الكازينو. وقد مال الرجل نحوه قائلا:

- حضرتك رأيت كل شيء طبعا؟

فقطب متسائلا ومنكرا فى آن فواصل الرجل:

- سوف تدعى فورا إلى المحقق!

- أى محقق يا هذا؟

- ارتكبت الجريمة فى المحطة على بعد أمتار من مجلسك.

تساءل ذاهلا:

- جريمة؟!

- أين كنت يا سيدى؟، جريمة القتل فظيعة، ألا تعرف الآنسة «المولدة»؟

- المولدة!

- قتلها شاب مجنون الله ينتقم منه..

تقلص وجهه فى ألم وذهول، وغمغم:

- قتلت.. لا أصدق.. وأين هى؟

- حملوها إلى المستشفى لإسعافها ولكنها ماتت فى الطريق.

- ماتت!

- ألم ترها وهى تقتل على بعد أمتار منك؟

وبعد صمت عاد يقول:

- كيف لم ترها؟! أما أنا فكنت مشغولا فى الداخل ثم خرجنا على

صوت الصراخ، كان الملعون يطاردها وهى تجرى أمامه حتى طعنها فى المكان الذى يقف فيه المحقق.

- والقاتل؟

- استطاع الهرب، حتى الآن على الأقل، شاب صغير، رآه ناظر المحطة وهو يثب فوق السور ويستقل دراجة بخارية، ولكن سيقبض عليه عاجلا أو آجلا.

اشتد تقلص وجهه بالألم حتى تقوض فى مجلسه. ومضى الجرسون عنه وهو يقول:

- كيف لم تر الحادثة التى وقعت بين يديك؟!

وأقبل شرطى فدعاه إلى لقاء المحقق. قرر أن يركز فكره المشتت مهما كلفه ذلك من عناء. نظر فى ساعته فأدرك أنه نام ساعة على الأقل. ومضى مع الشرطى وهو يجر رجليه. بدأ السؤال كالعادة بالاسم والسن والعمل.

- متى جلست فى الكازينو؟

- فى السابعة صباحا على وجه التقريب.

- ألم تغادر مجلسك طيلة الوقت؟

- كلا.

- ماذا رأيت، حدثنا بالتفصيل من فضلك؟

- لم أر شيئا!

- كيف؟! لقد ارتكبت الجريمة فى هذا الموضع، فكيف لم تر شيئا؟

- كنت نائمًا!

- نائمًا!

أجاب باستحياء:

ـ نعـــــم .

ـ لم توقظك المطاردة؟

ـ كــــلا .

ـ ولا الصراخ؟

هز رأسه نفيا وهو يعض على شفتيه .

ـ ولا استغاثتها وهى تناديك باسمك؟

تأوه هاتفا :

ـ اســـمى!

ـ أجل لقد نادتك مرارا ، ورجح الشهود أنها كانت تجرى نحوك مستغيثة بك!

حملق فى وجهه بذهول وتمتم فى توسل :

ـ كــلا!

ـ هـو الواقـع .

أغمض عينيه ولم يعد يلقى بالا إلى المحقق أو أسئلته حتى قال له هذا فى ضجر :

ـ أجب . . عليك أن تجيب . .

ـ إنى فى غاية من التعاسة . .

ـ أكانت ثمة علاقة بينك وبينها؟

ـ كــــلا .

ـ ولكنها نادتك باسمك!

ـ نحن من ضاحية واحدة ونقيم فى شارعين متجاورين . .

ـ شهد شهود بأنهم كثيرا ما رأوكما تقفان متقاربين فى انتظار الديزل؟

ـ توافق فى المواعيد بحكم العمل ليس إلا . .

ـ أليس لاستغاثتها بك دلالة ما؟

ـ لعلها كانت تشعر بإعجابى بها!

ـ إذن كانت هناك علاقة من نوع ما.

ـ ربمـــا.

ثم بانفعال قاهر..

ـ كنت أحبها.. كنت أفكر كثيراً فى طلب يدها.

ـ أو لم تفعل شيئا فى سبيل ذلك؟

ـ كلا.. لم أكن اتخذت قرارا بعد..

ـ ووقعت الواقعة وأنت نائم؟

أطرق فى خزى أليم:

ـ والآخر.. أعنى القاتل.. أليس لديك فكرة عنه؟

ـ كــــلا.

ـ ألم تسمع عن علاقة لها بآخر؟

ـ كــــلا.

ـ ألم تر أحدا يحوم حولها؟

ـ كــــلا.

ـ هل لديك أقوال أخرى؟

ـ كــــلا.

مازالت السماء محجوبة وراء سقيفة السحاب الجامد. وتساقط رذاذ دقيقة واحدة ثم انقطع. هام على وجهه طويلا.

انقضى النهار وهو يهيم على وجهه. كأنما يداوى أزمته الطاحنة بالحركة المرهقة. وصادفه مدرس التاريخ أمام الحديقة اليابانية. هز يده مصافحا وهو يقول:

ـ تعال نجلس سويا، بى رغبة فى الحديث.

فقال بفتور:

ـ من غير مؤاخذة لا رغبة لى فى الأحاديث الميتافيزيقية.

مط الرجل بوزه آسفا وتساءل:

ـ أحق ما يقولون من أن المولدة قتلت أمامك وأنت نائم؟

فسأله غاضبا:

ـ من أدراك بذلك؟

أجاب بنبرة المعتذر:

ـ سمعت به عند الحلاق!

ـ أمن العجب أن ينعس إنسان متعب؟.. وما ذنبه إذا قامت القيامة فى أثناء ذلك؟

ضحك الزميل وقال ملاطفا:

ـ لا تغضب ولكنى لم أكن أعلم بالعلاقة بينك وبين المولدة.

ـ أى علاقة!.. أنت مجنون..

ـ أعتذر.. أعتذر.. هذا ما سمعتهم يقولونه فى دكان الحلاق..

مضى فى سبيله الذى لا هدف له. اللعنة، ستنتفخ الشائعات كالمناطيد. ولن ترد قوة الجميلة اليانعة إلى الحياة، حسرة لا دواء لها. واستغاثتها اليائسة ارتطمت بجدار النوم ولكنها نفذت بطرق سحرية إلى آذان الضاحية. أيتها التعيسة إنى أتعس منك. وقال له بائع السجاير وهو يعطيه العلبة:

ـ لا بأس عليك يا أستاذ، البقية فى حياتك.

اللعنة. لا يبدو أن أحدا يجهل الواقعة. وها هم يقدمون له العزاء مسلمين بداهة بعلاقته بها، ها هى الخطبة تعلن بعد الوفاة. وربما تمادت الظنون وراء ذلك.

ورماه البدَّال بنظرة ذات معنى. ما البدَّال!.. يخيل إليه أن الأعين كلها تتعقبه. إنه فى الواقع مطارد، متهم، مجرم. إنه مسئول عن الاستغاثة الضائعة لا مفر. وغدا فى المدرسة تنهال عليه الأسئلة. الجحيم الحقيقى ستندلع نيرانه فى حوش المدرسة. تخبط طويلا. تلقى أقوالا كثيرة كلها مثيرة مؤلمة. إنه حديث الضاحية. لا حديث للضاحية إلا الجريمة والنوم. «قبض على القاتل وهو تلميذ بالثانوى». إذن قتلها العبث وجنون العيال. «كان القاتل يحبها ولكنها لم تشجعه». لذلك بدت له دائمًا رزينة وجادة. «من المؤكد أنها كانت تحب مدرس اللغة العربية». يا للحسرة.. شغل عن إسعادها بجلسات تحضير الأرواح ومنعه من إنقاذها النوم. «قال فى التحقيق إنه كان نائمًا، أليس عجيبًا ألا يوقظه الصراخ والمطاردة والاستغاثة»، إنه لعجيب حقا ولكنهم لا يعلمون أنه قضى الليل فى تحضير الأرواح وأحاديث المصير. اعتصر الألم قلبه فتجرعه سما بطيئا. واضطر أخيراً إلى الرجوع إلى البيت وهو كاره. كان المساء يغشى حجاب السحاب بغلالة معتمة. وجد صاحب البيت يقتعد أريكة تحت النخلة الوحيدة. استقبله بلطف وقال:

- تبدو متعبا، أرجو ألا يكون حديثى معك فى الصباح قد ضايقك؟

هز رأسه نافيا فخفض الرجل صوته وهو يسأله:

- أحق ما يقال...؟

فقاطعه بحدة:

- أجل.. قتلت المولدة على بعد أمتار من مجلسى فى الكازينو وأنا نائم، هذه هى المعجزة الثامنة!

- لم أقصد يا بنى أن..

فقاطعه مرة أخرى:

- ولم أسمع استغاثتها، وفى قول آخر أنى سمعته ولكنى تناومت...

أقبل عليه الرجل معتذرا متأسفا ، وأخذه من ذراعه فأجلسه إلى جانبه قائلا :

ـ كان المرحوم والدك صديقى ، لا تؤاخذنى يا بنى . . .

ومضت فترة غير قصيرة فى صمت وحذر ثم استأذن فى الانصراف فأوصله الرجل حتى الباب الداخلى . وهناك همس فى أذنه :

ـ أكرر الرجاء فيما قلته لك فى جلسات تحضير الأرواح .

استلقى على الفراش وهو من العناء فى غاية ، ثم غمغم مغمض العينين :

ـ ما أحوجنى إلى نوم طويل ، طويل بلا نهاية ! . .

الظلام

كثيف الظلام كأنه جدار غليظ لا يمكن أن تخترقه عين. لا شيء يرى ألبتة. إنهم يجتمعون في عدم، ولا صوت إلا قرقرة الجوزة، والجوزة تدور حتى تتم دورتها في الظلام فترجع إلى المعلم بطريقة ميكانيكية. وكثيرا ما كان المعلم يقول:

- إني أرى في الظلام، اعتدت ذلك لطول معاشرة السجون والخلاء..

إذن فهو يراهم على حين أنهم لا يرونه ولا يرون شيئا. وبسبب الظلام يعيش كل منهم في عالم خاص به مغلق الأبواب عليه. يجيئون من أماكن مختلفة، متباعدة ومتقاربة، لا يدري أحد عن الآخر شيئا، يشدهم إلى هذه الحجرة داء واحد. والمعلم يدعوهم واعدا إياهم بالأمان والستر، وكلما دعا أحدهم قال له:

- في عزبة النخل داري. وفي حوشها الخلفي فيما يلي الحقول شيدت حجرة مرتفعة، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضي إليها، ستصعد إليها على سلم خشبي سرعان ما يطرح تحت أكوام التبن، فهي حصن لا يكبس، ولها من الظلام حولها حصن آخر.

أجل، ها هم معلقون في الهواء، غائصون في الظلام، كأنما يعيشون في الزمن الذي لم تكن الأعين قد خلقت فيه بعد. وكل يد تلامس اليد المجاورة عند تناول الجوزة ولكن يد من هي؟ أي شخص وأي هوية؟

ويضحك المعلم ويقول :

ـ نحن مدينون للظلمة بالسلام الذى ننعم به صدقونى فإننى رجل مجرب!

لم يتوقع يوما أن يناقشه أحد خشية أن يفضحه صوته لدى آخر ممن يكفنهم الظلام. وكان يقول لهم :

ـ لو تعارفتم على ضوء شمعة لتبادلتم أحاديث لا نهاية لها، ولاحتد الخلاف بينكم، ولانقلب المجلس جحيما لا يطاق، وطالب اللذة لا يحب ذلك أما أنا فأمقته مقتا.

وندت من الظلام همس ضحكات مكتومة فقال :

ـ أعرف بينكم أناسا مختلفى الأديان والآراء وها أنتم تمضون وقتا طيبا فى سلام بفضل الظلام والصمت!

ند الهمس من جديد. لعلهم يسخرون كعادتهم ولو فى سرهم. يا لها من طريقة طريفة لمعالجة التفرقة الدينية والفكرية!.. يسخرون وهم لا يعرفون للحجرة التى يترددون عليها شكلا إلا مس الشلت والحصيرة المفروشة بينها!.. وهو يسعل كثيرا ثم يقول بصوت كالقرقرة :

ـ إن أحدكم قد يلقى جليسه فى مكان فلا يعرفه، قد يكون زميلا فى مصلحة أو عضوا فى أسرة، قد يريد له الخير أو يضمر الرغبة فى قتله، كل ذلك طريف للغاية!

إنهم جميعا غارقون فى الإثم، وحامل الإثم جبان، ولذلك فهم يكتمون الضحكات فتضغط وتمط فى صوت فحيح زاحف فى الظلمة، ويضحك عاليا ويقول :

ـ إنى أعرفكم جميعا، الاسم والعمل والمكانة، أما أنا فلا يهمنى شىء، لا يكبل الإنسان مثل حرصه المضحك على حسن السمعة، وما سر الحرية التى أتمتع بها إلا السجن والخلاء وسوء السمعة!

يا له من صوت كالقرقرة، ونبرة لا تخلو أبدا من السخرية والثقة بالنفس، وسوء سمعته جدير بتخويف الناس من مجلسه لولا دبلوماسيته في معاملة السلطات. وعنده يجد المصاب ما لا يجد عند غيره من الصلف والطمأنينة. ويقبع فى الظلام محتكرا الكلام والرؤية.

ومرة قال ضاحكا:

- إنكم جميعا من السادة، لكم منزلة تخافون عليها. أما الفقراء فلا يخافون على شيء ولذلك فلا مكان لهم عندى، ولذلك فهم لا يؤمنون بالظلام والصمت..

هذا الرجل رغم حقارته ذو مكانة يؤمن بها المصابون بالأدواء. يتلقون أياديه بامتنان. ولا ينتشلهم من العدم إلا عيناه المحطمتان لجدار الظلمة. وهو أحدب مغضون الوجه قصير القامة، نيف على السبعين ولكنه ذو حيوية شيطانية. ويسألهم ضاحكا:

- لِمَ لا تجعلون من حياتكم كلها امتدادا جميلا لهذه الجلسة؟

ثم قال وكأنه يجيب على سؤاله:

- ستقولون العمل.. الأسرة.. الواجب.

وضحك ساخرا ثم واصل قائلا:

- لكنه لا شيء إلا الظلام والصمت!

وتنقضى فترة طويلة فى صمت ثم يعود قائلا:

- إنى أسخر منكم بالكلام الفارغ وأنتم تسخرون منى فى قلوبكم بالصمت، وهذا يعنى أنكم لا تتعلمون، أما أنا فقد حققت لنفسى المعجزة، رغم أنف الدنيا، فلا أسرة لى ولا عمل إذ إن الموزع فى الحقيقة لا عمل حقيقيا له، وفى غمرة الذهول وجريان الأيام على وتيرة واحدة تبدو لى الحياة طويلة كثيفة مثقلة بالملل فلا أخاف الموت، من منكم لا يخاف الموت!

وبرغم حقارته، برغم ما يثيره فى النفوس من سخرية خرساء، فقد مس وترا حساسا. ولكن من يصدق أنه لا يخاف الموت؟ . ولِمَ إذن بنى هذه الحجرة المعزولة فى الهواء والخلاء؟

وفى ذات ليلة قال لهم بثقة:

ـ فى هذه الحجرة خلاصة مركزة لحكمة الحياة.

وكف عن الكلام طويلا. وإذا بالجوزة تتوقف عن الدوران. ظنوه ينشد شيئا من الراحة بخلاف عادته. وانتظروا فطال بهم الانتظار فى الصمت والظلام. انتظروا وانتظروا ولكن لم يجدّ جديد. استهلكوا قدرتهم على الانتظار. تنحنح بعضهم استحثاثا له على العمل ولكن دون جدوى، هل نام الرجل؟ هل أغمى عليه؟ هل مات؟

وأقربهم إلى موضعه مد يده متحسسا مكانه ثم همس بقلق:

ـ ليس الرجل فى مكانه!

وألصقهم بالباب قام ليفتحه ولكنه همس فى اضطراب:

ـ الباب مغلق بإحكام.

واضطر أحدهم إلى رفع صوته قائلا:

ـ لا بد من وجود نافذة فليفتش عنها كل فيما يليه من الجدار. ومضت فترة فى التفتيش ثم تتابعت الأصوات:

ـ لا توجد نافذة.. لا توجد نافذة..

واستهانوا بالستر فقرروا إشعال أعواد الثقاب ليتبينوا موقفهم. ولكن أحدا لم يجد علبة ثقابه. علبة السجار بمكانها أما الثقاب فلا أثر له! لا يمكن أن يقع ذلك مصادفة. سرق الثقاب! ولكن من السارق ولم سرقه؟ وماذا يراد بهم؟! ونادوا المعلم، نادوه بأصوات غاضبة، نادوه بأصوات رعدية ولكن لا مجيب، لا مجيب على الإطلاق، ولا صوت.

ـ أين ومتى ذهب؟

ـ من أى منفذ تسلل؟

ـ ما معنى اختفائه؟

ـ كيف ولِمَ سرق الثقاب؟

ـ لعله ذهَب لقضاء أمر فدهمه حادث.

ـ ولم أغلق الباب؟

ـ ولم سرق الثقاب؟

ـ أهزر وراء ذلك أم شر؟

ـ نحن مهددون فى الظلام...

وعادوا ينادون الرجل فترتطم أصواتهم بالجدران الصماء. بحت حناجرهم، وكلت قبضاتهم من دق الحيطان. وأطبق عليهم اليأس فى الظلام. ما عسى أن نفعل؟ هل ننتظر إلى ما لا نهاية؟ نستسلم حتى يتقرر مصيرنا؟. وما مصيرنا؟ هل جن الرجل؟ استكانوا إلى مقاعدهم فوق الشلت وهم فى نهاية من الإعياء، كأنهم جروا شوطا قطع منهم الأنفاس أو خاضوا معركة مزقت الأوصال، حتى الخوف باخ تحت وطأة التلبد الذى أخلفه الوهن، وتثاءب شخص بصوت مسموع فجرى التثاؤب من فم إلى فم. وتساءل صوت:

ـ ترى هل سرقت علبة الثقاب وحدها؟

وفتشت الأيدى الجيوب حتى صاح أحدهم:

ـ بطاقة الشخصية!.. لا أثر للبطاقة..

وتتابعت الأصوات:

ـ وبطاقتى أيضا..

ـ النقود موجودة أما البطاقة فلا أثر لها.

ـ ما معنى هذا اللغز؟!

وأكثر من شخص أراد معاودة النداء فخذله صوته . وعاد التثاؤب يتردد فى نغمة ممطوطة مسترخية . ثم ساد فى الظلام صمت ثقيل كأنه النوم أو الموت .

وإذا بصوت يشق الظلام متسائلا فى هدوء :

ـ كيف حالكم؟

تردد الصوت فى الظلام وحده ولكن دون رد فعل فعاد يتساءل مرتفعا درجات :

ـ هوه . . كيف حالكم؟

وندت حركة ضعيفة فى الظلام أعقبها صوت يقول بنبرة فازعة للأمل :

ـ المعلم! . . من؟ . . المعلم؟

واستبقت الأصوات مرددة : المعلم . . المعلم . . فعاد الصوت يتساءل متهكما :

ـ كيف حالكم؟

ـ تسأل عن حالنا! . . أنت! . . أى دعابة سمجة؟!

ـ كيف حالكم ، هذا ما أسأل عنه .

ـ أين كنت يا رجل؟

ـ أنا لم أبرح مكانى . . .

ـ ألا زلت مصرا على العبث بنا؟

ـ صدقونى فأنا لم أبرح مكانى طيلة الوقت .

ـ كذاب . . تحسسنا موضعك فلم نجد لك أثرا .

ـ لم يحرك أحد منكم ساكنا . .

ـ أيها المكابر . . لقد ناديناك حتى بحت أصواتنا ودققنا الجدران حتى كلت أيدينا .

ـ لم يحرك أحد منكم ساكنا، صدقونى، وكنت طيلة الوقت بينكم!

ـ ما زلت متوهما أنك قادر على العبث بنا!

ـ صدقونى.. لم أفعل شيئا سوى أن أخذت بطاقاتكم وعلب الثقاب.

ـ ها أنت تعترف.. كف عن العبث.. لم نكن نعرف أنك نشال ماكر.

ـ بل أخذتها وأنتم نيام..

ـ نيـــام!

ـ أجل وأنتم نيام..

ـ لم يغمض لأحد منا جفن.

ـ بل نمتم ساعة كاملة على الأقل أنجزت فيها مهمتى.

ـ أنت مطالب بأن تفسر لنا سلوكك الشاذ.

ـ طيب.. خطر لى أن أقوم بتجربة فذة.. خدرتكم بخلطة عجيبة من ابتكارى..

ـ إنك تهـذى..

ـ ستفقدون ذاكرتكم قبل طلوع الفجر.

ـ رد إلينا مسروقاتنا وافتح الباب.

ـ واستغرقتم فى النوم ساعة كاملة تبعا للخطة، ثم استيقظتم، وتثاءبتم، وندت عنكم همسات لا معنى لها، ثم تكلمت أنا!

ـ لن يجدى خداعك..

ـ نمتم ساعة بدليل أننى أخذت ما أردت أخذه منكم وأنتم لا تشعرون.

ـ ولكننى تحسست مكانك بيدى فلم أجدك.

ـ لم يكن باستطاعتك أن تحرك يدك.

ـ ودققنا الجدار ونادينا بأصوات كالرعد . .

ـ عجزتم عن ذلك كما تعجزون عنه الأن ، ولكنكم توهمتم أفعالا لم تخرج فى حقيقتها عن نطاق رءوسكم ، كانت أفعالكم كالظلام الذى يلفكم لا وجود حقيقيا لها . .

ـ ألا ترى أننا غير مستعدين للهزل؟

ـ ستفقدون الذاكرة قبل الفجر ، لن يعرف أحدكم نفسه فضلا عن الآخرين!

ـ ألا تـرى . .

ـ لذلك استوليت على بطاقاتكم ، لن يعرف أحدكم نفسه وهيهات أن يعرفه أحد .

ـ اغسل رأسك بماء بارد . . أسرع . .

ـ غدا صباحا لن يوجد منكم أحد ، ستختفون كما اختفت بطاقاتكم . .

ـ هل جننت يا رجل؟

ـ ليكن ، ماذا جنيتم من عقلى؟ ، فلتجربوا جنونى ، سوف أخدر نفسى بابتكارى العجيب ، ومن حسن الحظ أننى لا أملك بطاقة من الأصل ، فلنشكر للظلام والصمت والليل أياديها . .

ـ يا مجنون يا مخرف . .

ـ ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة على الحركة ، سوف ألحق بكم أعدكم بذلك ، انطرحوا جثثا فوق الشلت فغدا سيستقبلكم الخلاء أجسادا فتية مبللة بندى الحقول .

وساد الصمت . لم ينبس أحدهم بكلمة ، وترددت أنفاس نوم عميق . وجعل ينقل بصره من واحد لآخر ثم تنهد بارتياح متمتما :

ـ مبللة بندى الحقول .

الوجـه الآخـر

زارنى عثمان بعد غياب طال بسبب خدمة طويلة فى الأقاليم. تعانقنا بحرارة. تذاكرنا عهدا ماضيا امتد من الطفولة مارا بالشباب حتى الكهولة. وقد عاد ليشغل وظيفة هامة رئيسية فى جهاز الأمن عقب انتصارات خطيرة أحرزها فى مطاردة المجرمين. وبعد أن شرق بنا الحديث وغرب سألنى:

- هل ترى رمضان؟

توقعت هذا السؤال طيلة الحديث. حدثنى قلبى بأنه آت لا ريب فيه. وأجبت بأمانة:

- أجل، بين حين وآخر..

- مازلتما صديقين؟

- أجـــل!

- أليس غريبا أن تظلا صديقين وأنت المربى الفاضل؟!

- الأمر لا يخلو من غرابة ولكنها عشرة عمر، ثم إنه يلقانى إذا جاء كشخص أليف مستأنس كأنما لا يمت بصلة إلى الشخص الآخر المثير للفزع..

- لا أتصور ذلك!

- ولكنها حقيقة، وعلاقته بى هى العلاقة الإنسانية الوحيدة فى حياته فلا عجب أن يحرص عليها..

ـ قد يدهمك بغدره على غير انتظار.

ـ لا سبب يدعو إلى ذلك البتة..

تنهد بحزن عميق. وشاركته مشاعره. إنه شقيقه. وهو يمثل نقطة سوداء دامية فى حياته وحياة أسرته. نشآ فى بيت واحد. نشأنا فى حارة واحدة تحت ظل جيرة حميمة.. ولكن رمضان كان دائما ريحا هوجاء تعصف الوجوه بالطين والتراب. وسألنى:

ـ هل تستطيع أن تهيئ لى لقاء معه فى بيته؟

تفكرت مليا فى قلق فعاد يقول بإلحاح:

ـ لا بد من ذلك، إنى مسئول عن الأمن، وأنت أدرى بما فى موقفى من حرج..

ـ ولكنه... أعنى...

ـ ولكنه يمقتنى ويسىء بى الظن، غير أنه سيثق فى كلمتك..

ـ أعدك بالسعى إلى تحقيق رغبتك، ولكن عدنى بالتزام الحلم إلى أقصى حد مهما لقيت من استفزاز.

ـ ليس فى نيتى طبعا أن أعرض بيتك المنعزل فى الضاحية الهادئة للفضيحة.. إنى أعطيك كلمة شرف وأنت أدرى بقدرتى على ضبط النفس.

ـ وقد وعدتك..

ـ تبدو غير متحمس؟

ـ فعــلا..

ـ وتراه لقاء عقيما؟

ـ أى نعــم.

ـ ولكن لا بد منه..

- أى نعـــم .

وتبـادلنا نظرة طويلة حزينة . وتلبـدت سمـاؤنا بغيـوم الـذكـريات المتجهمة . الصداقة الحميمة وقوى الهوس الصبيانى التى انقلبت مع الزمن شرا كاسرا . وقال بنبرة كئيبة :

- لم أكن أتخيل أنه سيتردى إلى هذه الدرجة من الحضيض !

- ولا أنا ، ولو أن العمر والتجربة ومزاولة التربية لم تدع لى مجالا واسعا للدهشة .

- وكم أرقتنى أنباء تدهوره وأنا بعيد عن العاصمة .

- لم يكن فى الوسع صنع شىء .

- لا أشك فى أنك حاولت الإصلاح ما وسعك ذلك !

- طبعا ، ولكن النصيحة تؤجج ناره ، فتجنب الحديث الشائك .

- واحتفظت بصداقته رغم ذلك؟

- كان الذى بيننا أعمق من أخوة حميمة ، ثم إن الإنسان الذى يجىء لمقابلتى إنسان آخر ، طيب المعشر عامر بأجمل الذكريات ، يفيض بالود قلبه . .

- وكيف تفسر ذلك؟

- إن الحيّة الغادرة لا تخلو من عواطف أمومة !

- ولكنك تعلم أنه وحش قذر وعار إنسانى !

- لن أدافع عن نفسى فإنى صديقه كما أنك شقيقه . .

- لازلت أعجب أنك لم تقطعه !

داريت ابتسامة كئيبة وقلت :

- إنه ليس كائنا من جنس آخر غير جنسنا ، الحكاية أنه أسير الأهواء التى وفقنا إلى كبحها . .

ـ هو الفرق بين المدنية والوحشية . .

ـ إنى لا أدافع عن انحرافه . .

ولذنا بالصمت مليا ثم عاد يسأل :

ـ هل زرت مخبأه فى الجبل؟

تساءلت بدورى ضاحكا :

ـ هل تبدأ التحقيق معى؟

فضحك ضحكة فاترة ولم ينبس فقلت :

ـ لا أدرى شيئا عن هذا المخبأ المزعوم .

فقال بامتعاض :

ـ اعتداء ، برمجة ، بلطجة ، مخدرات ، عربدة ، سرقة ونهب ، هتك أعراض . .

ـ أما المبالغات فقد خلقت منه أسطورة . .

ـ إنى أعرفه من المهد ، وأنت كذلك . .

ـ أى نعـــم!

ـ كنا ثلاثة ، وكنا واحدا . .

ـ أجـــــل . .

ـ انظر كيف انشق وانحرف . .

ـ يا للأسف . .

ـ شرير بطبعه!

ـ الأفضل أن نقول إن ثمة معاملات صادفته داخل البيت وأخرى فى الطريق .

ـ لا هذه ولا تلك يمكن أن تبرر هذا المصير الأسود .

ـ أنا لا أدافع عنه ، ولا جدوى من ذلك . .

نهض وهو يقول إنه آن له أن يذهب، ذكرني بوعدي، ثم ودعني وانصرف.

* * *

وقلت لرمضان ونحن نحتسي الشاي بعد العشاء:

ـ أحدهم يروم مقابلتك.

حدجني بنظرة ثاقبة. نظرة ينفذ بها إلى باطن محدثه إذا تشمم وراء كلماته أمرا. وقال متهكما:

ـ إن تكن امرأة فأهلا وسهلا بها..

وأدركت أنه أدرك ببساطة:

ـ إنه رجل، ومن رجال الأمن.

فقال مقطبا:

ـ توقعت ذلك مذ علمت بعودته إلى العاصمة.

ـ هذا يقطع بحسن ظنك به..

فتقلص وجهه غضبا ـ وما أسرع انفعالاته ـ وقال:

ـ اللعنة!.. إنه مثال العقل كما يقولون، ولعله ازداد مع الأيام ثقل ظل..

ـ لا شك أن وراء رغبته بواعث طيبة..

ـ منذ المهد وهو يود القضاء عليّ!

ـ كان يود لك أن تسلك في الدنيا مسلكه..

ـ العقل.. الاتزان.. الاعتدال.. النظام.. الاجتهاد.. الأدب، إنه رمز الموت في عينيّ!

يا للذكرى. شدّ ما تبادلا المقت. وبازدراء متقزز كان عثمان يقول عنه «عاصفة مجنونة.. نزوة بلا ضابط.. ثور هائج معصوب

العينين . . مجموعة من الأكاذيب والخرافات» . شد ما تبادلا المقت ولكن من الغريب أننى أحببتهما معا . عثمان كان الرفيق الذى شجعنى على الدرس والخلق والوطنية وأما رمضان فكنت أهرع إليه ليروى ظمئى المكبوت إلى الانطلاق والأسطورة والغاية . وقلت له :

ـ إنه أخوك على أى حال .

ـ ماذا يريد منى؟

ـ ليس من الصعب أن نتخيل . .

ـ لعلها مكيدة!

فقلت محتجا :

ـ كلا . . ألف مرة كلا . .

ـ العقل يعنى الحكمة والأنانية والجبن!

ـ لك أن ترفض إذا شئت . .

ـ يجب أن يعرف أننى لا أخشاه .

ـ إذن فلنجدد موعدا؟

ـ ولكنى لن أقع كذبابة . .

ـ والـرأى؟

ـ لعله يريد أن ينتقم؟!

ـ لقد انقضى الماضى واختفى وهو اليوم زوج وأب سعيد .

تذكرت عروس عثمان الأولى التى هربت مع رمضان موقعة بالأسرة زلزالا . وكيف عاملها بعد معاشرة أسبوع بوحشية حتى اضطرت إلى الاختفاء مجللة بالعار واليأس . وعدت أقول :

ـ لقد مضى ذلك وانقضى! ولك أن ترفض إذا شئت .

فتفكر مليا ثم قال :

ـ ادْعُه . . وسوف أحضر متأخرا بعد أن آخذ حذرى . .

* * *

وجاءنا رمضان ونحن ندخن فى حجرة المكتب . ووقف عثمان لاستقباله فالتقيا وجها لوجه بعد فراق ربع قرن من الزمان . نظرت إليهما باهتمام محموم وقلبى يخفق . تقابلا بوجهين جامدين لم يتحركا باختلاجة عاطفية واحدة . وتصافحا مصافحة رسمية باردة ، وقال عثمان :

ـ أشكرك على قبول دعوتى . .

وجلس عثمان على حين جلس رمضان إلى جانبى على الكنبة . واقترحت أن أنصرف ولكنهما أصرا ـ معا ـ على استبقائى . وقال عثمان مخاطبا أخاه :

ـ لا أظنك تجهل السبب الذى دعوتك من أجله . . ؟

قال رمضان ببرود :

ـ صارحنى بما لديك .

ـ طيب نحن نعمل الآن فى مدينة واحدة ، ويحسن بنا أن نتجنب ـ ما وسعنا ذلك ـ وقوع المأساة .

ـ المأساة؟ !

لم يخدع بتجاهله إذ كان على يقين من إدراكه لما يعنيه ، ولذلك واصل حديثه قائلا :

ـ عندى اقتراحان . .

فتساءل رمضان وهو يرمقه بتحد :

ـ أولهما؟

ـ أن تسلم نفسك معلنا توبتك ، ولعل ذلك يخفف من عقوبتك . .

ـ وثانيهمـا؟

ـ أن تبتعد عن طريقى بالوسيلة التى تختارها .

ضحـك رمضـان ضحكة هازئة ولاذ بالصمت . انتظر عثمان مليا ثم تمتم :

ـ الحق أنى لم أتوقع خيرا !

ـ إذن فلم دعوتنى؟

ـ لكى أبرئ ذمتى .

قطب رمضان غاضبا وقال :

ـ طالما رغب كلانا فى القضاء على الآخر !

ـ هذا حق فيما يتعلق بك .

ـ وفيما يتعلق بك أيضا ولكن كان لك أسلوبك الخاص .

ـ لا جدوى من الجدل ، والأفضل أن تفكر فيما عرضته عليك .

ـ لن تظفروا بدليل ضدى ولا شاهد . .

ـ أنصحك بألا تطمئن إلى ذلك .

ـ جرب حظك إذا شئت .

ـ سأجربه بلا أدنى تردد .

بدهتنى حقيقة طريفة . إنهما كانا يقتتلان طيلة العمر ومذ كانا فى المهد . لم يجدّ جديد سوى أنهما سيتلاقيان وجها لوجه . سيكتشف كلاهما عما قريب أنه كان يقاتل شقيقه أو جزءا من نفسه .

نهض رمضان قائما . لوح بيده محييا ، ومضى عابسا عصبى الخطوات .

* * *

بدأت المعركة بين الشقيقين عقب ذلك الاجتماع بأيام. دهمت قوات الأمن جميع الأماكن المشبوهة فى المدينة والجبل والخلاء. قبض على جميع من ظن أن لهم بالرجل علاقة من الرجال والنساء. واستجوبوا بعنف فتتابعت الاعترافات. وتضاعف عدد المقبوض عليهم بعد أن ثبت أن أعوانه منبثون فى أماكن لا حصر لها كالملاهى والأندية والمقاهى والمصالح الحكومية، حتى أماكن العبادة لم تخل منهم. وتدفقت القوات بكل ثقلها فى مطاردة عنيفة جللت المدينة بطابعها الإرهابى فذكرت الناسين بأيام الطوارئ وليالى الغارات. فتشت العيون السيارات والتاكسيات والناقلات، ومسحت الكشافات زوايا الجسور ومنعطفات الطرق والخرابات، وطوفت القوارب الشراعية فوق سطح النيل واقتحمت الخلوات على العاشقين. ومكالمة تليفونية عابثة كانت خليقة بأن تحرك فرقة كاملة من الشرطة وتزلزل عمارة آمنة. وندبة فى أنف رجل برىء أو بروز غير عادى فى جبهته قد تجر عليه من الويلات ما لم يكن يحلم به. ولم يكن من النادر أن تند عن ركن من الطريق صيحة، تعقبها أصوات أقدام راكضة، ثم تنطلق رصاصات. فيخلو الطريق فى ثوان. وتنقض على أديمه مطاردة عنيفة لا تنتهى إلى شىء. وأظلت المدينة سحابة قاتمة تقطر رعبا.

تابعت أخبار المعركة باهتمام لم أشعر بمثله من قبل. وكنت على يقين من الخسران الشخصى مهما تكن نتيجة المعركة. فلا مفر من أن أفقد أحد أحب رجلين إلى قلبى. وموقف الحياد بينهما لا يهضمه ضميرى فلا بد من الانحياز إلى عثمان. غير أن عواطفى تمردت على واقتتلت بمرارة ومزقتنى تمزيقا. فكلما أحرز رجال الأمن انتصارات حاسمة داخلتنى كآبة وأشفقت من خلو عالمى من رمضان ومرحه وأساطيره ومغامراته فى دنيا الجنس والتحدى. وكلما فاز الرجل فى مطاردة ونشر الرعب من حوله وهدد أخاه انقبض قلبى واستشعرت خوفا من تسلط

قوى الهدم والعربدة وتمكنها من تقويض دعائم الأمن والحضارة. وانبهم أمرى على نفسى ولم أعد أدرى أى رجل أكون، ولا ماذا أروم، ولا كيف أبلغ التوازن المنشود. هكذا تابعت أنباء المعركة باهتمام وانفعال وخجل وحيرة.

* * *

وانتهت المعركة إلى خاتمتها المحتومة. وطلعت علينا الصحف ذات صباح بصورة رمضان وقد خر صريعا مضرجا بدمه. انقضت المطاردة الجهنمية وأيام القلق ولياليه. رنوت إلى الصورة طويلا حتى شعرت بالدمع يدب فى أعماق عينى. وحنقت، امتلأت بالحنق، ولكنى لم أدر علام أحنق. وازدحمت مخيلتى بالقوى الكونية المدمرة كالزلازل والبراكين والأعاصير والشهب والفيضانات والجراثيم. ولم أدر هل أتذكرها على سبيل التشفى أو لأعرف موضعها بين الخير والشر.

وزارنى عثمان بعد ذلك بأيام. كان كل شىء فى الدنيا قد انقلب رأسا على عقب. فى دنياى على الأقل. وبخلاف العهد وجدت نحوه نفورا مرضيا بذلت قصاراى لأروضه وأهذبه. وشعرت فى ذاتى بعديد من الشخوص تتصارع وتتجاذب بعنف جنونى. جلسنا على مقعدين متقاربين وهو يطالعنى بنظرة ثقيلة تنم عن روح ميت. وفصل بيننا صمت غامض لا يريد أن ينقشع. وأخيرا تململ فى مجلسه قائلا:

- إرادة الله ولا راد لإرادته..

فقلت أو قال لسانى بلا وعى:

- إنى أرمل وحيد وقد امتلأ البيت بالأشباح..

تفحصنى بقلق ثم قال:

- إنك لا تبدو كما عهدتك. أأنت مريض؟

- لا أشكو إلا من الأشباح..

ـ أنت لا تعنى ما تقول؟

فقلت وأنا أضحك ضحكة رجل نسى تماما كيف يسيطر على نفسه:

ـ عشت عمرى متوهما أن سلوكك كان المثل الذى قادنى إلى طريق النجاح حتى تبوأت مكانى المرموق فى عالم التربية!

ـ لعلك تبالغ..

ـ فعلا.. إنى نجحت بفضله هو، هذه هى الحقيقة!

ـ هـــو؟

ـ الرجل الذى عبأت قوى الأمن لقتله..

ـ حديثك يقلقنى..

ـ شبح من الأشباح أكد لى ذلك!

ـ عـــزيزى!

ـ صه.. وقال لى أيضا إن رمضان انطلق من قاعدة لا يمكن الدفاع عنها ولكنه اتبع أسلوبا رائعا، أما نحن ـ أنا وأنت ـ فلنا قاعدة لا يمكن الهجوم عليها ولكننا نتبع أسلوبا سمجا ميتا..

ـ لا أفقه لقولك معنى..

ـ من العسير فهم لغة الأشباح..

ـ صديقى.. إنك فى حاجة إلى نوم عميق..

ـ إنى فى حاجة إلى يقظة مجنونة.. هكذا قالت الأشباح.

ـ جئتك بعد أن أضنانى الغم..

ـ وسقونى جرعات ضخمة من شراب الأعاصير.. وقالوا لى إن من يهدم مدينة خير ممن يحافظ على جدار قديم..

ونهضت فجأة ورحت أتمشى فى الحجرة متوكئا على عصا، فهتف بى:

ـ إنك تعـرج . .

فأشرت إلى ركبتى وقلت :

ـ التهاب أصابنى صباح اليوم المشئوم . .

ـ زرت طبيبك؟

ـ كلا سأجد دوائى عند الأشباح . .

اربد وجهه باليأس فهتفت متشفيا :

ـ سـأنبـذ التـربيـة والقـواعـد والطقـوس ، ابتـعـت لوحـة وعلبـة ألوان وأقلاما وفرشاة ، سأعمل مصورا ، مصورا أعرج ، وقد جئت بامرأة عارية كنموذج . .

وأزحت الستار عن باب الحجرة المجاورة فتبدت عـارية وهى تنظر إلينا بهدوء وتحد! . . ردد عينيه عثمان بينهـا وبينى فى ذهول فصحت ضاحكا :

ـ لعلك تسألنى عـما أدرانى بقواعـد الرسم وأصـوله؟ . . حسن ، لن يعرقلنى شىء ، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شىء . .

ورميت عينيه المحملقتين بنظرة متحدية وقلت بهوس :

ـ لقد أضعت أيامى فى صحبة العقلاء ، سألهو بالأشياء العميقة ، سأنصب شراعى فى مهب العاصفة . سأسحق مقتنياتى وأقذف بها للرياح ، سأعرض عن العقلاء الشرفاء ، وليجرفنى الدوار ، فليكونوا سعداء نافعين ولأكن مجنونا مخربا وليتقبلنى الشيطان ، وتسألنى عن القواعد والتقاليد فأقول لك إنه لن يعرقلنى شىء ، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شىء!

ومضيت بعزم نحو الفتاة العارية وأسدلت الستار ورائى .

الحاوى خطف الطبق

قالت لى أمى :

ـ آن لك أن تكون نافعا .

ودست يدها فى جيبها وهى تقول :

ـ خذ هذا القرش واذهب لتشترى الفول ، لا تلعب فى الطريق وابتعد عن العربات .

تناولت الطبق ولبست قبقابى وذهبت وأنا أترنم بأغنية . وجدت زحاما أمام بياع الفول فانتظرت حتى عثرت على منفذ إلى الطاولة الرخامية وهتفت بصوتى الرفيع :

ـ بقرش فول يا عم .

سألنى بعجلة :

ـ فول خالص ، بزيت ، بسمن؟

لم أجد جوابا فقال لى بخشونة :

ـ وسَّع لغيرك .

تراجعت مسحوبا بخجلى وعدت إلى البيت خائبا فصاحت بى أمى :

ـ راجع بالطبق فارغا ، دلقت الفول أم ضيعت القرش يا شقى؟

فتساءلت محتجا :

ـ فول خالص ، بزيت ، بسمن ، لم تخبرينى !

ـ يا خيبة، ماذا تأكل كل صباح؟

ـ لا أعـرف . .

ـ خيبة . . خيبة، قل له فول بزيت . .

مضيت إلى البياع وقلت له :

ـ بقرش فول بزيت يا عم .

سألني مقطبا نافد الصبر :

ـ زيت حار، زيت طيب، زيت زيتون؟

بهت فلم أحر جوابا أيضا فصاح بي :

ـ وسَّع لغيرك . .

رجعت مغيظا إلى أمي فهتفت داهشة :

ـ عدت كما ذهبت، لا فول ولا زيت .

فقلت بغضب :

ـ زيت حار . . زيت طيب . . وزيت زيتون . . لِمَ لم تخبريني؟

ـ فول بزيت يعني فول بزيت حار .

ـ إيش عرفني؟

ـ أنت خيبة وهو رجل متعب، قل له بزيت حار .

ذهبت مسرعا وهتفت بالبياع وأنا على مبعدة أمتار من دكانه :

ـ فول بزيت حار يا عم .

وقـفت ورأسي بحـذاء الطاولة الرخـامـيـة وأنـا ألهث . وكـررت بانتصار :

ـ فول بزيت حار يا عم .

دس المغرفة في القدر قائلا :

ـ ضع القرش على الرخامة .

وضعت يدى فى جيبى فلم أعثر على القرش . فتشت عنه بقلق . قلبت الجيب ظهرا لبطن ولكنى لم أجد له أثرا . استرد الرجل المغرفة فارغة وهو يقول بقرف :

ـ ضيعت القرش ، أنت ولد لا يعتمد عليك .

نظرت فيما تحت قدمى وحوالىّ وأنا أقول :

ـ لم أضيعه . . كان فى جيبى طول الوقت .

ـ وسَّع لغيرك وقل يا فتاح يا عليم .

عدت إلى أمى فارغا فصرخت فى وجهى :

ـ يا خبر أسود ، أنت يا ولد عبيط ؟

ـ القــرش .

ـ مــاله ؟

ـ ليس فى جيبى .

ـ اشتريت به حلوى ؟

ـ أبدا واللــه .

ـ كيف ضاع ؟

ـ لا أعــرف .

ـ تقسم على المصحف أنك لم تشتر به شيئا ؟

ـ أقســم . .

ـ جيبك مثقوب ؟

ـ أبــــدا .

ـ ربما تكون أعطيته للبياع فى المرة الأولى أو الثانية ؟ !

ـ يمكــــن .

ـ ألست متأكدا من شىء ؟

ـ أنـا جـائع !

ضربت كفا بكف وقالت :

ـ أمرى لله ، سأعطيك قرشا آخر ولكنى سآخذه من حصالتك ، وإن عدت بالطبق فارغا سأكسر رقبتك . .

وذهبت جـريا وأنا أحلـم بفطور لذيذ . وعند المنعطف المفـضى إلى حارة البياع رأيت حلقة من الصبيان والأطفال وسمعت تهليل أفراح . ثقلت قدماى وشد قلبى إليهم . على الأقل ألقى نظرة عابرة . اندسست بينهم ، فإذا بالحاوى يطالعنى . غمرتنى فرحة مذهلة . نسيت نفسى تماما . استمتعت بكل قوة بألعاب البيض والأرانب والحبال والثعابين ، ولما اقترب الرجل ليجمع النقود تراجعت هامسا «لا نقود معى» انقض علىَّ متوحشا . تخلصت منه بصعوبة . جريت ولكمته تشق ظهرى ، ولكنى سعدت للغاية ، وذهبت إلى البياع وأنا أقول :

ـ بقرش فول بزيت يا عم .

جعل ينظر إلىَّ ولا يتحرك فكررت الطلب فسألنى بغيظ :

ـ هـات الطبـق . .

ـ الطبق ! . أين الطبق؟ . سقط منى وأنا أجرى؟ . خطفه الحاوى؟

ـ أنت يا ولد عقلك ليس فى رأسك !

عدت أفتش فى الطريق على الطبق المفقود . وجدت موضع الحاوى خاليا ، ولكن أصوات الأطفال دلتنى عليه فى حارة قريبة . درت حول الحلقة ، لمحنى الحاوى فصاح بى مهددا :

ـ ادفع أو فاذهب أحسن لك .

فهتفت بيأس :

ـ الطبـــق !

ـ أى طبق يابن الشياطين؟

- رد إلىَّ الطبق .

- اذهب وإلا جعلتك طعاما للثعابين .

إنه سارق الطبق . ولكنى ابتعدت عن مرمى عينيه اتقاء لشره . ومن القهر بكيت . وكلما سألنى مار عما يبكينى قلت له «خطف الحاوى الطبق» . وانتبهت من كربى على صوت يقول : «اتفرج يا سلام» . نظرت خلفى فرأيت صندوق الدنيا قائما ، ورأيت عشرات من الأطفال تهرع إليه . وتتابع وقوف المشاهدين أمام عينى الصندوق وراح الرجل يشرح الصور بإغراء «عندك الفارس الهمام ، وست الكل زينة البنات» . جفت دموعى وتطلعت إلى الصندوق بشغف . نسيت الحاوى تماما والطبق . لم أستطع مقاومة الإغراء . دفعت القرش ووقفت أمام العين إلى جانب بنت وقفت أمام العين الأخرى . تسلسلت أمام ناظرى صور الحكايات الخلابة . ولما عدت إلى دنياى كنت فقدت القرش والطبق ولم يعد للحاوى من أثر ، لم أفكر فيما فقدت واستغرقتنى صور الفروسية الحب والصراع . نسيت جوعى . حتى المخاوف التى تتهددنى فى البيت . نسيتها . تراجعت خطوات لأستند إلى جدار أثرى كان يوما ما مبنى لبيت المال ومقرا للقاضى ، واستسلمت بكليتى للأحلام . حلمت طويلا بالفروسية وزينة البنات والغول . وتكلمت فى حلمى بصوت يسمع ولوحت بيدى بأكثر من دلالة . وقلت وأنا أدفع بالحربة الخيالية :

- خذ يا غول فى قلبك .

وجاءنى صوت رقيق قائلا :

- ورفع زينة البنات خلفه فوق الحصان!

نظرت إلى يمينى فرأيت الصبية التى زاملتنى فى الفرجة . تبدت فى فستان متسخ وقبقاب ملون وهى تعبث بضفيرتها الطويلة . وفى يدها الأخرى حبات بيضاء وحمراء من «براغيث الست» تستحلبها على مهل . تبادلنا النظر . مال قلبى إليها فقلت لها :

ـ نجلس لنستريح .

بدت مستسلمة لاقتراحى فأخذتها من ذراعها ودخلنا من بوابة الجدار الأثرى فجلسنا على درجة من سلمه الذى لا يفضى إلى شىء . سلم يرتفع درجات حتى ينتهى إلى بسطة تلوح وراءها السماء الزرقاء والمآذن . جلسنا صامتين جنبا إلى جنب . قبضت على يدها وجلسنا صامتين لا ندرى ماذا نقول . وتناوبتنى مشاعر غريبة وجديدة ومبهمة . قربت وجهى من وجهها فشممت رائحة شعرها الطيبة تخالطها رائحة ترابية وعبير أنفاس ممزوج بشذا الحلوى . قبلت شفتيها . ازدردت ريقى الذى اقتبس مذاقا حلوا من ذوب براغيث الست . أحطتها بذراعى دون أن تنبس بكلمة ، وأقبل خدها وشفتها ، فتسكن شفتاها عند تلقى القبلة ثم تعودان إلى استحلاب الحلوى . وقررت أخيرا أن تقوم . قبضت على ذراعها بجزع وأنا أقول :

ـ اجلسى .

ـ فقالت ببساطة :

ـ أنا ذاهبة .

فسألتها بضيق :

ـ إلى أين؟

ـ إلى أم على الداية .

وأشارت إلى بيت يقيم أسفله كوّاء بلدى .

ـ لماذا؟

ـ لأقول لها أن تأتى بسرعة .

ـ لماذا؟

ـ أمى تصرخ فى البيت ، قالت لى اذهبى إلى أم على الداية وقولى لها أن تأتى بسرعة . .

ـ وستعودين بعد ذلك؟

فهزت رأسها بالإيجاب وذهبت. تذكرت بذكر أمها أمي. انقبض قلبي. غادرت السلم الأثرى عائدا إلى البيت. بكيت بصوت مرتفع وهى طريقة مجربة أدافع بها عن نفسى. توقعت أن تجيئنى ولكنها لم تأت. تنقلت بين المطبخ وحجرة النوم فلم أعثر لها على أثر. أين ذهبت الأم؟ ومتى ترجع؟ وضقت بالبيت الخالى. وخطر لى خاطر طيب. أخذت من المطبخ طبقا ومن حصالتى قرشا وذهبت من فورى إلى بياع الفول. وجدته نائما على أريكة أمام الدكان مغطيا وجهه بذراعه. اختفت قدر الفول وأعيدت قوارير الزيت إلى الرف وغسلت الرخامة، اقتربت منه هامسا:

ـ يا عـــم..

فلم أسمع إلا شخيره. لمست كتفه فرفع ذراعه فى انزعاج وطالعنى بعينين حمراوين:

ـ يا عـــم..

انتبه إلى وجودى وعرفنى فسألنى بخشونة:

ـ ماذا تريد؟

ـ بقرش فول بزيت حار..

ـ هـــه؟

ـ معى قرش ومعى الطبق.

صرخ فى وجهى:

ـ أنت مجنون يا ولد، اذهب وإلا كسرت دماغك.

ولما لم أتحرك دفعنى بيده دفعة قوية ألقتنى متقهقرا على ظهرى. نهضت متألما وأنا أقاوم البكاء الذى يلوى شفتى، ويداى قابضتان إحداهما على الطبق والأخرى على القرش. رميته بنظرة غاضبة.

فكرت فى عودة خائبة يائسة، ولكن أحلام الفروسية عدلت من خطتى. صممت واتخذت قرارا سريعا. وبكل قوة ساعدى رميته بالطبق. طار الطبق فأصاب رأسه. ركضت بسرعة لا ألوى على شىء. وملأنى اليقين بأننى قتلته كما قتل الفارس الغول. ولم أتوقف عن الجرى إلا على مقربة من الجدار الأثرى. نظرت خلفى وأنا ألهث فلم أر أثرا لمطاردة. وقفت حتى تمالكت أنفاسى ثم ساءلت نفسى ما العمل وقد ضاع الطبق الثانى. وشىء يحذرنى من العودة المباشرة إلى البيت. وما لبثت أن استسلمت إلى موجة من الاستهانة تحملنى إلى حيث تشاء. هى علقة لا أكثر ولا أقل وسأنالها لدى العودة، فلتؤجل العودة إلى حينها. وها هو القرش فى يدى، ويمكن أن أحظى بمتعة لا بأس بها قبل العقاب. قررت أن أتناسى جريمتى ولكن أين الحاوى، وأين صندوق الدنيا. فتشت عنهما هنا وهناك بلا ثمرة. أرهقنى البحث العقيم فمضيت إلى السلم الأثرى وراء الميعاد. جلست أنتظر وأتخيل اللقاء. تاقت نفسى إلى قبلة أخرى معبقة بشذا الحلوى. واعترفت فيما بينى وبين نفسى بأن الصبية وهبتنى مشاعر لم أجرب أطيب منها من قبل. وفيما أنتظر وأحلم ترامى إلىّ همس من الجهة الخلفية. رقيت فى الدرج بحذر وعند البسطة الأخيرة انبطحت على وجهى لأرى ما وراءها دون أن يلمحنى أحد. رأيت خرابة مطوقة بسور عال، وهى آخر ما بقى من بيت المال ومقر قاضى القضاة. وتحت السلم مباشرة جلس رجل وامرأة. هما مصدر الهمس، أما هو فأشبه بالمتشردين، وأما هى فغجرية ممن يرعين الأغنام. صوت باطنى مريب قال لى بأنهما يجتمعان فى «ميعاد» كالذى جاء بى. بذلك تنطق الشفاة والنظرات والأعين ولكنهما على خبرة مدهشة ويفعلان أمورا لا يحيط بها الخيال. شد بصرى إليهما مشدوها فى استطلاع ودهشة ولذة ولم يخل من انزعاج.

وجلسا أخيرا جنبا إلى جنب، لم يعد يهتم أحدهما بالآخر. وبعد فترة ليست بالقصيرة قال الرجل:

ـ النقود!

فقالت بضيق :

ـ أنت لا تشبع .

بصق على الأرض، ثم قال :

ـ أنت مجنونة .

ـ أنت لص . .

بظهر يده لطمها لطمة قوية . قبضت حفنة تراب وقذفتها في وجهه . انقض عليها بوجه مغبر فأنشب أصابعه في زمارة رقبتها . بدأ صراع جهنمي مرير . ركزت قواها عبثا لتخليص رقبتها من يده، احتبس صوتها، جحظت عيناها، ضربت بقدميها الهواء . حملقت فزعا أخرس حتى رأيت خيطا من الدم يتسلسل من أنفها . فرت من فمي صرخة . زحفت إلى الوراء قبل أن يرفع الرجل رأسه . هبطت السلم وثبا وعدوت كالمجنون إلى حيث تحملنى قدماى . لم أتوقف عن العدو حتى انقطعت منى الأنفاس . جعلت ألهث دون أن أرى شيئا مما حولى، ولما انتبهت إلى نفسى وجدتنى تحت قبو مرتفع يتوسط مفترق طرق . لم تطأه قدماى من قبل ولا فكرة لى عن موقعه بالنسبة لحيّنا . وكان يقتعد جانبيه شحاذون لا يبصرون . ويعبره فى شتى نواحيه أناس لا يلتفتون إلى أحد . أدركت بخوف أننى ضللت الطريق، وأن متاعب لا حصر لها تتربص بى حتى أهتدى إلى سبيلى . هل ألجأ إلى أحد المارة لأسترشد به؟ . ولكن ما العمل لو ساقنى الحظ إلى رجل كبياع الفول أو متشرد الخرابة؟! هل تقع معجزة فأرى أمى مقبلة فأهرع إليها بكل قلبى؟ هل أجرب السير وحدى فأتخبط حتى أعثر على أثر أستدل به على طريقى؟

وقلت إن علىَّ أن أحزم أمرى، بسرعة ودون تردد، فقد أخذ النهار يولى، وعما قليل سيهبط الظلام من مجاهله .

ثلاثة أيام فى اليمن

١

الأديـــــب

ها هى السيارة تنطلق والقاهرة تبتعد. تطايرت الهموم وخفقت القلوب فى طريق السويس. وقال فى صوت حنون:

ـ لن نفترق زهاء أسبوعين، كم تمضى أيام طويلة دون أن يرى أحدنا الآخر..

أحدقت بنا لا نهائية الصحراء من الجانبين فأهدت إلينا هواء منعشا رغم حرارة يوليو. وصلنا إلى ميناء الأدبية مع المساء. تعلقت أعيننا بالسفينة الراسية عند الشاطئ حينا ثم أخذنا سبيلنا بين صفوف من الجند وأكوام من المؤن والذخيرة. مضى بنا المرشد إلى مركز التشهيلات. تم التعارف بيننا وبين الضابط، ثم جلسنا ننتظر. إنه ليس بضابط كلا، إنه دوامة مكهربة. يحرك الجنود والموظفين بأصابعه العشرة وبحاجبيه وأنفه وشفتيه ويتكلم من خلال عشرة تليفونات. وكلما مر بنا بصره تفحصنا باسما وهز رأسه هزة تدعو للتساؤل والفضول. آلو.. ليتقدم حملة صناديق الذخيرة، يا عم حسنين، أنت مسئول عن توصيل البطاطس.. هات الساركى، اسمعنى يا يسرى السطح الأمامى من الدور الأول للسرية الثالثة، عليوة راجعت شهادات التطعيم؟، مرحبا بضيوفنا الأدباء مرحبا.. سمعت عبد الوهاب وهو يغنى قصيدتك يا أستاذ، انتهيتم من التيفود؟.. والكوليرا؟.. آلو.. انتهى التطعيم؟، أما مقالاتك أنت يا أستاذ فهى السحر الحلال، آلو.. أرسل شخصا لتطعيم الأدباء..

ـ تم تطعيمنا ضد الكوليرا والجدرى!

ـ والتيفـود؟

ـ أكدوا فى البلدية ألا ضرورة لذلك.

ـ التيفود مهم جدا.. دعونى أتصرف فأنا منذ الساعة مسئول عن الحركة الأدبية فى مصر..

ـ ولكنكم تعطون الحقن بطريقة عسكرية.. أعنى..

ـ يا رب السماوات!.. أيخاف من الحقن أصحاب «البيداء تعرفنى» و«علو فى الحياة وفى الممات»؟!

استسلمنا. اجتزنا فترة عصبية لم تخل من التأوهات. ولما انتهى التطعيم قال:

ـ انتهينا من الكوليرا والجدرى والتيفود..

ثم وهو يتفحص وجوهنا بنظرة غامضة:

ـ أما بقية الحميات هناك فلم يكشف الطب سرها بعد..

تبادلنا نظرات ارتياب وتوجس على حين انصرف عنا فى غير مبالاة. وجرى التهامس بيننا فى إشفاق:

ـ أحـق ما يقـول؟

ـ يبدو الأمر جدا.

ـ إذن ما معنى هذه الرحلة؟

ـ لننفعل بالأحداث.

ـ أليس من الأسلم أن ننفعل فى القاهرة؟

ـ وهؤلاء الجنود أليسوا بشرا مثلنا؟

ـ ولكنهم جنود!

ـ لعله يمازحنا..

وإذا به يلتفت نحونا هاتفا :

- ستنفعلون أولا وقبل كل شيء بالحميات المجهولة !

وضحكنا طويلا . ضحكنا وكأننا نتسول تكذيب الظنون . ضحكات في الأصوات المسموعة للقلق المتطاحن في أعماقنا . ولكنه استقبل هدنة راحة في زحمة العمل فرمقنا بنظرة جادة حقيقية لأول مرة . جادة وودودة . ثم قال بنبرة أخوية :

- أهلا بكم ، فرصة طيبة وسعيدة ، وهنيئا لكن زيارة بلد شقيق ثائر ، ستجدون له مزاقا خاصا وجمالا ذا سحر غير منكور ، فاذهبوا بسلام آمنين . .

شددنا على يده بامتنان وذهبنا وراء حقائبنا المحمولة إلى السفينة . ودعانا القبطان إلى العشاء . وطيلة الوقت ترامى إلينا غناء الجنود من سطح السفينة الأمامي ، ودار حديث عن ميعاد الإبحار والجو . وأعلمنا الرجل الكريم الظريف بأننا سنكون ضيوفه طوال الرحلة .

وفي أثناء ذلك اختفى من الصحاف الدجاج والشواء والملوخية والبطاطس والسلطة الخضراء والمش والبطيخ . ودعانا إلى قضاء السهرة في جناحه المطل على البحر ثم مضى إلى عمله . أطفأنا المصباح واهبين الليل أنفسنا . أنعشنا شراب البرتقال ونسمة معبقة بجو الميناء . وما زالت أغنية تتردد متهادية إلينا من معسكر الجنود فوق مقدم السفينة .

- ترى فيم يفكرون حول بنادقهم؟

- الحرب . . إنها الحرب . .

- أقدم حرفة في الوجود .

- لكنها تنشب هذه المرة في سبيل التحرير والحرية .

- إنها الحرب ، وهي ككل حدث خطير تدفعنا إلى مواجهة لغز الوجود ، وجها لوجه . .

وتذوقنا حينا النسمة الملاطفة . استسلمنا بكل قوانا للحظة طيبة خالية من الكدر ، ثم تفرق الحديث واختلف كأنما يدور بين أجيال . وأوشك أن يستقل كل اثنين بفكرة ما .

- ستكون الحرب القادمة خاتمة الحروب!

- ولكن هل تستمر الحضارة بلا حروب؟

- الحق أن العالم مقبل على عصر عليه أن يخلق فيه كل شىء من جديد .

- وربما وجد أن عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى ولا آمال كبيرة!

- أظنه بسكال الذى قال إننا مبحرون فى هذا العالم ، ليس لنا خيار فى أمر السفر فلم يبق لنا سوى اختيار السفينة . .

- ولكن كيف نختار سفينة مناسبة إذا لم يكن لدينا فكرة عن الرحلة؟

الأفكار مغلقة ولكن الأصوات راضية تند عنها غبطة المستمتع بعشاء لذيذ وشراب منعش . والغناء لا يتوقف ، يحمل إلينا أنغام حماس وحنين . وثمة تساؤلات عما ينتظرنا هناك عند المأكل والمشرب والمنام . ومخاوف أوشكت أن تتضخم لولا أن ارتفع صوت قائلا :

- ما هى إلا أيام ثم تنقضى بسلام . . دعونا نشارك الجنود حياتهم ولو بدون قتال . .

شعرت برغبة فى الحركة . غادرت جناح القبطان إلى السطح ماضيا حتى الشرفة المطلة على مقدم السفينة . رأيت الجنود على ضوء الكلوبات ما بين مستلقين وواقفين وجالسين . جال بصرى بينهم فى جد وانفعال . اجتاحنى طوفان من الذكريات الوطنية ، حماسية وأليمة على

السواء، لكنه طوفان حمل فى النهاية هذه السفينة، التى تحمل بدورها هؤلاء الجنود، ثملة بنشوة النصر والأمل، ملوّحة براية الأخوة والكرامة، فأيقنت أن تاريخنا الطويل المثقل بأحلك الذكريات يتكشف عن صفحة جديدة بيضاء. وخيل إلى أن اسمى يتردد فى نداء صاعد من بين أمواج الغناء. حقا!. أجل إن صوتا ينادينى. تحرك رأسى هنا وهناك حتى رأيت جنديا يشق طريقه نحو أسفل الشرفة ملوحا بيده. أمعنت النظر فيه بدهشة. تذكرته. انحنيت من فوق السور فى غاية من الابتهاج. لوح لى بيده تحية فلوحت له بيدى.

الجنـــــدى

دعتنى للجلوس فجلست. توقفت عن الكتابة على الآلة الكاتبة وقالت لى مجاملة:

- شكلك ظريف فى البدلة العسكرية.

نفخنى السرور، رحب بى الزملاء القدماء فى الإدارة. على مكتبى السابق المجاور لمكتب خطيبتى جلس شاب جديد هو الذى حل محلى بعد تجنيدى، سألتنى:

- هل اعتدت الآن الهبوط بالبارشوت؟

همست فى أذنها:

- عندما أقذف بنفسى أبسمل وأتذكر وجهك فيتم الهبوط على أحسن حال.

وناقشنا بعض المشكلات التى تلابس زواجنا كالأثاث والمسكن فاتفقنا على الإقامة «مدة» فى بيت والديها وبذلك نؤجل مشكلة المسكن ونكتفى بتأثيث حجرة واحدة. وتركتها واعدا بزيارتها فى القريب فى بيتها. مضيت من فورى إلى الثكنة بمنشية البكرى. ولم أكد أمكث ساعة هناك حتى صدرت أوامر بتجهيز سفريات الميدان. تجمعنا فى الحال. سألت جارى عما هناك فقال لى علمى علمك. اصطفت سريتنا الثالثة. وزعت علينا البنادق. انتقلنا إلى السيارات فانطلقت بنا إلى هايكستب. كان ثمة قطار فى انتظارنا، وثمة حركة نشيطة لنقل الذخيرة. همست فى أذن صاحبى:

- اليمـــن!

هز رأسه فخيل إلى أنه يوافقنى على رأيى . تحرك القطار . اجتاحنى شعور بالغربة والحيرة . لم أودع خطيبتى ولم أودع أمى . منذ عام كنت موظفا ، مجرد موظف على مكتب . وبفضل شبابى وصحتى أحببت وخطبت ثم جندت . ها هو القطار يحملنا إلى الميدان . سنهبط من الطيارات إلى ميدان حرب حقيقية . . لا تمرين ولا مناورة . يوم دعيت إلى التجنيد قال لى رئيس السكرتارية «ها أنت ذاهب . . وها هو تدريبنا لك يضيع فى الهواء . . ساء حظ الرئيس الذى يوظف شابا قبل تجنيده بعد اليوم» . كنت موضع ثقته وكنت بذلك فخورا . أنا طول عمرى من المتوكلين على الله المعتمدين على دعاء الوالدين . والحب عجيب كالقدر نفسه فذات يوم عهد إلى بتدريب موظفة جديدة . لم تكن أول فتاة أدربها فى السكرتارية ولكنها كانت الأولى فى حياتى .

ساءلت زميلى مرة أخرى :

ـ اليمن . . أليس كذلك؟

ـ أظن ذلك .

ـ متى نعرف؟

ـ كل آت قريب .

إذن هى الحرب . كما نراها أحيانا على شاشة السينما . وحتى فى السينما لم أشاهد معركة بارشوت إذ إننى أفضل عادة أفلامنا الغنائية . كانت الأولى فى حياتى فلم أعرف الحب قبلها بصفة جدية وقلت لها عليك بالانتباه فإن رئيس القلم يمزق أى خطاب لأقل هفوة! . ما أحلى ارتباكها إذا ارتبكت . ما أجمل نظرتها وهى ترنو إلى مدربها . وهى تستهديه المعونة والثقة فيهدى إليها قلبه ومستقبله .

وقال زميلى :

ـ القطار يهدئ من سرعته . . وستعرف كل شىء . .

وقف القطار. أكثر من صوت ردد اسم الأدبية. أجل.. أجل. غادرنا القطار. انتظمنا الصف. سرنا إلى الميناء. جرى تطعيمنا ضد الكوليرا والجدرى والتيفود. وكل حمل لوازمه ومضى نحو سفينة راسية بالميناء. تناولنا العشاء. أناس استغرقهم النوم وآخرون راحوا يغنون. الحق أننى لم أركب سفينة من قبل. لا فى البحر ولا فى النيل. بل إننى لم أر البحر قط. ولم أستطع أن أرى منه شيئا فى الظلام.

ـ أين الأمواج التى يقال إنها كالجبال؟

ـ نحن فى الميناء يا رجل يا طيب..

لفحنى هواء لطيف فملأت صدرى ثم سألته:

ـ وماذا تعرف عن دوار البحر؟

فسألنى بدوره:

ـ لماذا لا نغنى مع من يغنون؟

تمشيت مستطلعا. لاحت منى نظرة إلى أعلى. رأيت على ضوء كلوب وجها ينظر إلى أو بدا كذلك. مَن؟!. أستاذى القديم. أستاذى بمدرسة مكارم الأخلاق الإعدادية بشبرا. هو دون غيره. ترى ماذا جاء به إلى سفينتنا.. وجعلت أنادى وألوح بيدى وأنا أشق طريقى بين البنادق والنيام. وأخيرا عرفنى فلوح لى بيده. التقينا عند منتصف السلم تماما فتصافحنا بحرارة.

ـ أنت جندى؟!.. ما تصورت ذلك.

ـ جندى منذ عام فتركت وظيفتى إلى حين.

ـ متزوج؟

ـ كلا ولكنى خاطب.

ـ مبارك (ثم وهو يتفحص ملابسى) لا أعرف لغة ملابسكم.

ـ من قوة المظلات يا فندم.

ـ فرصة طيبة، أتمنى، لك حظا سعيدا .

ـ وماذا جاء بك يا أستاذى؟

ـ رحلة . . زيارة . . فى ضيافة الجيش .

ـ أهلا أهلا . . إنى أقرأ مقالاتك . . هل تركت التعليم؟

ـ نعـــم .

وتصافحنا مرة أخرى وهو يقول :

ـ أرجو أن أراك كثيرا .

انفصلنا . عدت إلى مقدم السفينة وصعد إلى السطح .

٢

الأديـــــب

أخيرا تراءت لنا ميناء الحديدة.

تهادت سفينتنا فى الممر المائى الذى شقه الروس في الصخر. عقب رحلة طويلة أذابتنا فيها الحرارة وأنهكتنا الأحاديث. فوق سطح بحر كظيم صامت، تحت سماء باهتة تترامى فى الآفاق بلا تعبير، بين جماعات متواثبة من الدرافيل. لا تسلية لنا إلا الكلام والسجائر والذكريات ولا عمل لنا إلا الاستجمام وتجفيف العرق.

أخيرا تراءت لنا ميناء الحديدة.

تطلعنا بشغف نحو الأرض التى ظلت دهرا طويلا متقوقعة. حتى ثارت ثورتها فحطمت القشرة الصلبة التى تحبسها فيما وراء التاريخ.

- تذكروا أن وطننا تلقى موجات فى إثر موجات من مهاجرى هذا البلد!

- لا يبعد أن نصادف أجدادا وأصولا ونحن لا ندرى.

قلبت وجهى فى مجموعتنا فرأيت وجوها تشى بأكثر من أصل تتراوح جذورها ما بين البلقان والسودان مارا بالشام ومصر. قلت لنفسى إن أضمن وأعرق أصل للإنسان هو الأرض.

* * *

استقبلنا مندوبا القيادتين العربية واليمينة. انتقلنا إلى مركز قائد الميناء

حيث قدمت لنا المرطبات. قائد ضخم كتمثال، وطراز من الرجال يضيف أصلا جديدا إلى مجموعتنا المتعددة الأصول. دعانا لمشاهدة خريطة لليمن.

- أرض مجهولة لا يعرفها إلا المرشدون..

انتقل المؤشر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

- جميع هذه المدن ثائرة وموالية أما الجبال فلا تخلو من جيوب!

- اعتقدنا أن الحرب قد انتهت.

- هى كذلك بالمعنى العسكرى ولكن علينا أن نطهر الجبال من المتسللين!

دعانا إلى جولة فى المدينة. زرنا المستشفى. تجولنا فى أحياء ردتنا بقدرة قادر إلى أزقة القاهرة وحاراتها القديمة. شاهدنا دكاكين حافلة بسلع من جميع أنحاء المعمورة. طالعتنا وجوه صامتة مغلقة غامضة، لا ينظرون نحونا، وإذا نظروا لم يرونا.

- يا حضرة القائد.. أهم يكرهوننا؟

- كلا يا أستاذ ولكننا فى عز وقت التخزين!

أجل.. إنه القات!. الدنيا تنساب فى حلم كبير يرفرف فوق المدينة ولم نعد إلا أشباحا لا حقيقة لها. وثمة تاجر مستلق على أريكة أمام دكان سأله القائد عن مكان ما ولكنه لم يبد حراكا ولم ينبس بكلمة.. ما فعل إلا أن رفع يده ببطء شديد مشيرا نحو المكان كأنما هى صورة متحركة مصورة بالتصوير البطىء، أما ظاهر الرجل اليمنى فيتلخص فى لحية وخنجر وبندقية. والتجول بين الحوانيت مثير للغاية. وكان مدعاة للتساؤل عن بدل السفر ومتى يصل. وقال القائد:

- ستجدون فى صنعاء سلعا أطرف وأجمل. أما تَعزّ فحدث عنها..

ولفتت الأنظار الحقائب والأقمشة، ثم احتكَرتها الهرمونات

والمقويات. وتسلل من القائد إلى النفوس إعجاب ودود. تضاعف عندما دعانا إلى العشاء فى مقر القيادة اليمنية. اجتمعنا هناك بكهول وشبان من اليمن، منهم من يرتدى البدلة ومنهم من يرتدى الزى الوطنى. تبادلنا الأحاديث عن الحرب والثورة والتاريخ والأدب. كشفت الروح اليمنية عن كنوزها فاستعدنا شعورنا بالأنس والألفة وتفتحت قلوبنا بلا حدود. وملت نحو زميل هامسا:

- أشعر كأنما رأيت هذا المكان من قبل!

فرد على هازئا:

- هذه نتيجة عقدة نفسية سأحدثك عنها فيما بعد.

وضعت الموائد حول بركة كانت مسبحا للجوارى ذات يوم. وعزفت لنا جوقة موسيقية وغنى لنا مهرج الإمام. وقال لنا القائد ونحن عائدون:

- ستبيتون الليلة فى الباخرة وغدا صباحا تذهبون إلى صنعاء..

وتساءلنا عن وسيلة المواصلات فقال:

- ثمة طريق جديدة شقها الصينيون فى الجبل، تقطعها السيارة فى ثمانى ساعات، وسوف ترافقكم قوة مسلحة..

ولدى سماع هذه العبارة الأخيرة ساورنا القلق، وسأله سائل:

- وما الداعى لمرافقة القوة المسلحة لنا؟

فأجاب مواريا ابتسامة:

- تعرضت الطريق لهجمة عدوانية فاشلة منذ أسابيع!

وأكثر من صوت قال فى نفس واحد:

- حدثنا يا قائد عن وسيلة مواصلات أخرى.

فضحك ضحكة عظيمة وقال:

ـ ستأخذون الطيارة وستصل بكم فى ساعة أو أقل .

عدنا إلى الباخرة . سهرنا فى جناح القبطان فى جو حار رطب خرق المألوف لنا . ولما آويت آخر الليل إلى القمرة قلت لزميلى فيها :

ـ أشعر من الحر والرطوبة بأننى سأموت عما قليل .

فأجابنى بصوت ملؤه النعاس :

ـ لكل أجل كتاب !

الجنــــدى

السفينة تقترب من الشاطئ. جمهور ضخم ينتظرنا. ولكن أى جمهور؟!. نساء!. أجل نساء لا حصر لهن فى أزياء مزخرفة بالحمرة والزرقة. ما الذى أخرجهن من البيوت؟. وفى لهفة حزم كل جندى متاعه وعدته وحمل بندقيته. ورأينا ضيوفنا من الأدباء وهم يهبطون وراء حقائبهم. وبحثت عيناى عن أستاذى السابق حتى رأيته. وددت أن أودعه ولكن الزحام والنظام حالا دون ذلك. وصدرت لنا الأوامر بالنزول فسرنا نحو السلم فى ترتيب عسكرى. ها أنا أستقبل بلدا غريبا بعد أن ركبت السفينة لأول مرة. وفوق الأرض تكشفت لى حقيقة المتجمهرين. إنهم رجال لا نساء كما توهمت من بعيد. يرتدون لباسا كالجونلة ويطلقون اللحى. تنغص حماسى وفتر فرحت أتمشى فوق رصيف الميناء. وتذكرت أمى التى لم أودعها. وتذكرت خطيبتى التى زرتها ولم أودعها أيضا. وقلت لو أننى ودعت أمى لتلقيت من دعواتها ما ينفعنى. ونودى علينا فهرعنا إلى الصف. ثم اتجهنا إلى سيارات معدة لتوصيلنا إلى صنعاء. وخرجت السيارات من حارات متربة حتى اجتزنا بوابة كبيرة. وإذا بنا ندخل فى طرق ممهدة، تأخذ فى الارتفاع كلما تقدمنا. وسألت زميلى:

ـ أين مملكة سبأ؟

فسألنى بدوره دون اهتمام بسؤالى:

ـ أنحن ذاهبون إلى الميذان؟

وجذبت الجبال المتشابكة عينى. ألقيت بنظرة إلى أسفل فأدركت

مدى الارتفاع الذى نصعد إليه بلا توقف. ومضت الحرارة تخف والجو يلطف والدنيا تتغير. وتساءلنا حتى متى نواصل الصعود فأجاب دليلنا اليمنى:

ـ سنصعد فوق الجبل.

لا فرق بين السيارة والطيارة فى هذا البلد. ودار بنا طريق دائرى فتطالعنا الشمس المائلة حينا وتغيب عنا حينا آخر. وبهرنا السحاب وهو يزحف نحونا حتى روعنا. ودخلنا فيه فغاب الوجود وبتنا من أهل السماء. حتى أنفسنا غابت عنا. وارتفعت الأصوات وتبادلنا الألقاب الضاحكة. ولما خرجنا من السحاب استوى الجبل إلى يسارنا على هيئة مدرجات تكسوها الخضرة المتألقة فهتفنا فى دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلا المقطم فيما وراء مسجد الحسين ـ رضى الله عنه ـ فتلوت فاتحة الكتاب. أما إلى اليمين فينحدر الجبل صانعا مدرجات واسعة من السهول تنبت فى جنباتها القرى، وتتناثر الأكواخ، وتهيم القطعان والأطفال، من تحتها خضرة ومن فوقها قطع من السحب متفاوتة الشفافية تتلاقى فى احتدام وتنتشر كقبة هائلة ثم تلاطم سفح الجبل تحتنا فتفور كالأبخرة، وها نحن ننطلق فوق السحاب كأنما تقلنا إليوشن المظلات. قال الزميل:

ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

فقلت بوجد:

ـ صدق الله العظيم.

قبيل الغروب اجتزنا بوابة صنعاء. وعلمنا أننا ذاهبون إلى كلية الطيران للمبيت فاستبشرنا خيرا ومنينا أنفسنا بليلة نوم ناعمة. غادرنا السيارات ومضينا نحو الكلية دون أن نتبين المبنى من الخارج لغلبة الظلام على الدنيا. ولكننا وجدنا أنفسنا فى مكان هو أشبه ما يكون

بالإصطبل. لا مقعد ولا فراش ولا حتى حصيرة. وقفنا ذاهلين نتبادل النظرات. وأمرنا أن ننام كيفما كان الحال حتى الصباح. نمنا ليلتنا على الأرض بكامل ملابسنا. وفى الصباح صدرت أوامر بأن ننشئ معسكرا حول مطار صنعاء فانهمكنا فى العمل. ولم يكن بين أيدينا من الطعام إلا القليل ومن الماء إلا النادر. وندرة الماء أزعجتنا بصفة خاصة. ونمنا ليلتنا فى المعسكر. وفى الصباح صدرت الأوامر بالتوجه إلى مدينة عمران. خرجنا من بوابة صنعاء الخلفية. وترامى أمامنا طريق صخرى يتنقل بين جبال عاتية. إنى أغوص فى المجاهل. أصبح الماضى بعيدا جدا. ترى هل علمت أمى بأمرى وهل علمت به خطيبتى؟. إنهما أعز ما يشدنى إلى عالمى القديم. أما العالم الصخرى المكفهر المترامى أمامى فلا أدرى شيئا عما يخبئ لى من أقدار الغيب. ورأيت عن بعد سيارة مدرعة تقود قافلتنا فتطلعت نحوها بثقة ولكنى قلت لنفسى إن الله وحده يحفظنا ويرعانا.

- كل شىء غريب هنا.

- وقافلتنا العسكرية تسير كما كنا نشاهد فى السينما.

- ولكن الفرجة شىء وخوض المعارك شىء آخر.

- لا يوجد إنسىّ.

- ولا جان!

وأخيرا تراءت لنا عن بعد بوابة حجرية تقوم على مبعدة منها إلى اليسار قلعة ذات أسوار وأبراج للمراقبة. تبودلت كلمات لم نسمعها بين السيارة المدرعة ورجال الأبراج فتح على أثرها باب البوابة فتهادت منه قافلتنا.

- مدينة عمـران؟

- أجل.. لعلنا نجد مقهى أو ملهى.

وجدنا قرية كقرانا فى الريف. تقع وسط سهل ومراعٍ تطوقها سلسلة من الجبال الصخرية من ثلاث جهات.

- مدينة عمــران.

- مدينة عمــران!

غادرنا السيارات. تناولنا الطعام من العلب وشربنا بحيطة وحذر. أحاط بنا الغلمان والأطفال شبه عرايا. حملقوا فى وجوهنا بأعين داهشة ثم تبادلنا الابتسام. ومرح الأطفال حول السيارات وتحتها. رغم البؤس أطل علينا من الأعين البريئة جمال فطرى ونظرات ذكية. ترى من من هؤلاء تربطنى به صلة قربى ترجع فى تاريخها إلى ألف عام؟.

ولم نمكث فى عمران إلا ساعات ثم صدرت الأوامر بالذهاب إلى حجّة. تحركت القافلة دون أن تترك وراءها ذكريات. دخلنا فى السحاب مرة أخرى حتى غاب عنا كل شىء. وندت أصوات متفرقة فى المسيرة الطويلة.

- أهى أرض عدوة أم صديقة؟

- ربما انهال علينا المطر أو الرصاص.

- قريب من هنا هبط سيدنا آدم إلى الأرض.

تلوت الفاتحة والصمدية. ولما انجاب السحاب عنا ترامى أمامنا الطريق الصخرى مرة أخرى. ثم انفسح فيما يشبه الدلتا عن أرض رملية تغطى الحشائش بعض رقعات منها متباعدة. وتوقفت القافلة فجأة فاشرأبت القلوب. دارت السيارة المدرعة فى حركة مناورة. وجرى التهامس من سيارة إلى أخرى كمين.. كمين. تناولنا البنادق فى حركة استعداد. برز علم أبيض من وراء أكياس الرمل المطوقة للكمين. خرج جندى يمنى ملوحا ومرحبا. نزل إليه من السيارة المدرعة ضابط فتصافحا. زار الكمين ثم عاد إلى السيارة. دخلنا حجّة، القرية

الجديدة، يا للقرى! إن قلبى يحلم بشىء لا يتحقق. التقينا بجنود مصريين من المشاة. تفرقنا فى الخلاء والشمس على وشك المغيب. الجو مائل للبرودة كأيام الخريف يا مصر.

- جنود مظلات؟

- نعم.

- صرواح!

- صرواح؟

- هبط الجنود فى واد ضيق تكتنفه الجبال.

- فى صرواح؟

- نعم.. ثم انهال عليهم الرصاص من الجبال!

- فى أى وقت؟

- الفجر.

- وقت يسهل فيه الاختفاء، هل وقع ضحايا كثيرون؟

- غير قليلين ولكنهم طهروا المنطقة..

- ليرحم الله الشهداء.

بلد كأنه شبكة من الجبال المتقاطعة. من كان يتصور ذلك؟!. كحارات خان الخليلى، كحجرة جحا، كالتعليمات المالية والإدارية. السحاب يركض وعما قليل تختفى السماء. وقيل إن المطر سينهمر. وارتفع النداء داعيا إلى إقامة المعسكر.

٣

الأديـــب

استيـقظت بعد نوم سـاعـتين. غـادرنا السـفـينة إلى مطار الحـديدة. اتخذنا مجالسنا فى طيارة إليوشن ناقلة للجنود. سنرى اليمن من فوق. صحراء وجبال ومراع. أما المنظر الجديد حقا فهو منظر الوديان الخضراء فى سفح الجبل. وقال أحدنا للمرافق لنا:

ـ الجبال عالية جدا:

ـ وتنطلق الطيارة بحذاء بعض القمم أحيانا.

ـ لو أن عدوا ربض فوق جبل فلن يتعذر عليه إصابة الطيارة بالبندقية العادية؟

فضحك قائلا:

ـ ولا يخلو بعض طياراتنا من آثار عديدة للرصاص..

ولما رأى وجومنا استطرد:

ـ لا تزيد نسبة الإصابة القاتلة عن واحد فى الألف..

أسلمت ناظرى إلى الجبال تحتنا. القرى الخضراء والفجاج المتلوية. حتى لاحت صنعاء. من الجو بدت مدينة عمران ومجمع أحياء ومقر قباب ومآذن. وعندما حملتنا السيارة من المطار إلى الفندق خاضت بنا زمنا موغلا فى القدم. وتراصت على جوانب الطرقات المتربة بيوت غريبة مزركشة. زركشتها أيدى أطفال فنسجتها من خيوط الأحلام

وألقت بها فى قلب مدينة سحرية. انشق سطح الأرض عن دنيا عابرة تطوف بها القلانس والوزرات والخناجر والبنادق واللحى. لفحتنا غربة، لاطفتنا نسمة، تجاذبتنا عواطف مبهمة، ثم لذنا أخيرا بأطيب المشاعر البشرية التى جئنا بها. وفى الفندق ارتددنا إلى ذكريات الطفولة، درجات السلم العالية، رائحة الكلس العطنة، الأسقف العالية. فندق قديم كقلعة بالية يديره غلام ذكى. جلسنا على الأسرة فى عنبر جمعنا. وتبادلنا أحاديث لا نهاية لها. وإذا بالغلام يجلس على الكرسى عند باب العنبر بلا استئذان. جعل يقلب عينيه اللماحتين فينا بهدوء عجيب. ولما تركزت الأبصار عليه قال:

- أنتم مصريون؟

- نعم يا أهل اليمن..

- أتريدون فطورا؟. عندى بيض من اليمن وفول من مصر ومربة من أوروبا..

- أأنت صاحب الفندق؟

- ابن صاحبه ولكنى مديره.

- كم عمرك؟

- اثنا عشر عاما.

- إذا غالطناك فى الحساب؟

- إنى أغالط الجن.

- عفارم عليك، وما رأيك فى الثورة؟

- كلنا متجمهرون وثوار واللعنة على الأعداء..

ودخل رجل غامق السمرة مترنح المشية، يرتدى بدلة ويطالعنا بنظرة مسطولة من عينين جاحظتين. قدمه الغلام باعتباره عمه ثم ذهب تأدبا.

وقال الرجل إنه من عدن ولكنه فى الأصل يمنى، وإنه شريك فى ملكية الفندق. وجلس على الكرسى الذى أخلاه الغلام.

ـ حضرتك مقيت؟

ـ كــلا.

ـ مسطول؟

فضحك وأجاب بالنفى. سرعان ما أغرانا مظهره بممازحته فأثبت أنه أوسع صدرا مما تصورنا.

ـ إن كنت حقا من عدن فهل تعرف لغة أجنبية؟

ـ عشت فى عدن ومصر وسوريا وإنجلترا وفرنسا.

ـ هل تستعمل القات؟

ـ كلا فإنه يضعف القوة الجنسية.

ـ إذن فأنت حريص على قوتك الجنسية؟

ـ إن قرة عينى فى التجارة والفسق!

ضحكنا طويلا. وانطلق يتكلم عن الفسق فى شتى أشكاله وألوانه ومتناقضاته، وعقد مقارنات عنه فى البلاد التى عاش بها ولكى يقيم الدليل لنا على صحة مراجعه حدثنا عن مصر حديث العارف الدائر، حتى قال له شيخنا:

ـ إنك معجم فسق البلدان!

غادرنا الفندق لزيارة القائد العام ورئيس الجمهورية. طفنا بمخازن الإمام وبيت الرهائن ثم شهدنا فى المساء ندوة أدبية بالقصر الجمهورى. وقابلنا بعض الموظفين المصريين المنتدبين لعمل أول ميزانية للجمهورية اليمنية وإقامة نظام مالى كأساس لحياتها الاقتصادية. وقد دعونى لزيارة جناحهم فى القصر فذهبت معهم وأنا أداعبهم قائلا:

ـ إذن فأنتم أول من بشر بالروتين فى أرض اليمن .

وجلسنا نتحدث وأصوات الشعراء فى الندوة تترامى إلينا . وقال أحدهم :

ـ لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم يختف منها الشعر ولكن المشكلة الحقيقية هى متى يغزوها العلم؟ !

الجنـــــدى

على السرية الأولى أن تستعد وتتجهز بأدوات الميدان. شملتنا حركة نشاط متدفقة وعصبية.

ـ لمــاذا؟

ـ للقفز فى مدينة صعدا.

أمرت أن أذهب مندوبا عن ف٢ للتعيين. ذهبت إلى مركز التعيين. تسلمت مجموعة كافية من الفانلات والكلسونات وطواقى صوف وجرابات وأحذية وعلب سردين وبلوبيف. إلى صعدا. وما صعدا؟.. مدينة أم قرية؟.. غزو أم إمداد؟.. لن يكون القفز هذه المرة فى ميدان تدريب كالمرات السابقة.

ـ لندع الله أن تكون صعدا خيرا من صرواح.

هتفت مقطبا لأتمالك أعصابى:

ـ الأعمار بيد الله.

ـ معى أربعة وعشرون ريالا وهى ثقيلة.

ـ لفها حول وسطك كما فعلت.

ذهبنا إلى مبنى المطار لتسلم المظلات. أخذت مظلة أساسية بدون احتياطى. ليكن طريقا سهلا آمنا حتى نهبط فوق الأرض. لبست ما يلزمنى فى الحرب من بدلة مموهة وبدلة اسموكس فوق بدلة كاكى قفز والخوذة والبندقية وحقيبة خزن ومحفظة قنابل وحقيبة الجراية وبها ذخيرة ومطواة. وانهمكت فى إعداد أشرطة المظلة. وإذا بيد تساعدنى.

رفعت رأسى فرأيت زميلى بمدرسة مكارم الأخلاق بشبرا. تعانقنا. عانقت فيه مصر وأهلها.

- سأكون معك فى الطيارة.

- جان مستر؟

- نعم وسأساعدك على القفز.

- أشكرك، هل تتذكر شبرا؟

فضحك ويداه لا تكفان عن مساعدتى. وقبل أن أسترسل فى الذكريات دعينا إلى طابور. استعرضنا القائد العام وقائد المظلات. وكان القائد يقف أمام كل جندى ويسأله:

- ألك أى طلبات؟

رأيته لأول مرة عن قرب. ذكرنى وجهه بوجه ستالين. وسرحت رغما عنى فلما عدت إلى الحاضر سمعته وهو يعطى إرشادات عن المنطقة. واصطفت الفصيلة أمام طائرة إليوشن رقم ١٤، الضابط أول الأستك يمين وأنا آخر الأستك شمال. وهذا يعنى أننى سأكون أول القافزين. ولكن ألا يستوى الأول والأخير أمام القدر؟.. وصعدنا إلى الطيارة واحدا فى إثر واحد. بدأت محركات الطائرة تدور. كان معنا اثنان من جان ماستر الذين يساعدون على القفز. وانطلقت الطيارة فلم تتحول أفكارى عن مصر. ولما استوينا فوق السحاب أشعلت سيجارة. ظلت أفكارى منغرسة فى مصر. النيل والخضرة والأم والفتاة. ولمحت طائرات تطير إلى جانبنا. وإذا بجرس النور الأحمر يدق معلنا وصول الطائرة إلى صعدا. وظهر النور الأخضر داعيا إلى القفز فى الحال.

- ستهبطون فى منطقة إسقاط بالمطار، توجد طائرة بيضاء فى وسط المطار، على كل فرد أن يتجه إليها.

تقدمت من باب الطائرة. توثبت للقفز بقلب خافق. دفعنى الزميل القديم بشدة ليبعدنى عن جسم الطائرة. لم أنتبه لنفسى إلا وحبال المظلة

تشدنى فى الجو. نظرت إلى أعلى فرأيت المظلة مفتوحة بيد أن حبالها التفت حول بعضها البعض. درت حول نفسى بسرعة فائقة حتى استقامت الحبال. مضيت أهبط فى الظلام وحركة إنسيابية هادئة تسرى فى أعصابى وأنا فى غاية من اليقظة والترقب. ولمحت شبح جبل غير بعيد، ما لبثت أن صرت فى كنفه، وجعل يرتفع كلما أمعنت فى الهبوط. اخترقت أذنى أصوات طلقات نارية. اجتاحنى القلق وشدت يدى على الحبال. ضرعت إلى الظلام أن يخفينى عن أعين الصائدين وأنا أتوقع رصاصة تصيبنى فى أى لحظة. انتهت الرحلة التى أعتبرها أطول رحلة فى حياتى فاصطدمت بالأرض صدمة شديدة ورحت أتدحرج منقلبا على نفسى مرات حتى استقر بى المكان. غرزت ركبتى على أرض معشوشبة مصمما على النجاة. فتحت قفل المظلة فأخليتها بسرعة ثم انبطحت على بطنى. وبحذر شديد تخللت الظلام بعينى. وإذا بى أجد شبحا على مقربة منى فسددت نحوه بندقيتى فى ذات الوقت الذى صاح بى «يا أخى المصرى.. أنا من الحرس الوطنى» أنهضنى وهو يعانقنى. حدثته عن الطلقات النارية فأكد لى أن الجبل بعيد نسبيا. نظرت حولى فميزت مجاميع من أشجار التين الشوكى. انطلقت فى الجو إشارة خضراء فمضينا نحوها، وانضممت مرة أخرى إلى السرية. نادى الضابط علينا فتبين غياب اثنين من السرية.

- أصيبا؟

- أو هبطا فى أرض العدو.

لاحظت وجود جنود من غير سريتنا. وعلمت أن ثمة قوة سبقتنا إلى هنا ولكنها حوصرت فطلبت نجدة فأرسلنا إليها من السماء. ولم يكن بصعدا أحد سوى الجنود. ولم نسترح دقيقة فتوزعنا فى أماكن من السور المحيط بالبلد وسرعان ما اشتركنا فى إطلاق النار. واستمر الضرب من ناحيتنا حتى توقف الضرب الآتى من الناحية الأخرى.

وصدر أمر بالاستعداد للهجوم على الجبل الأسود المطوق لجانب كبير للمدينة. حصل تجمع لا أعرف مداه. وترامى إلينا أزيز طياراتنا وهى تهاجم الجبل وترميه بقنابلها. تواصل الضرب ساعة ثم صدر الأمر بالتحرك. تقدم سريتنا ضابط حاملا مدفعا رشاشا فتبعناه فى حركة انتشار. تقدم الضابط لنا بث فينا روحا عاليا فأخذنا فى الصعود ونحن نطلق النار وقد شعشع ضوء النهار الباكر. وتساقط رذاذ فى أثناء تقدمنا ثم لم يلبث أن انهمر المطر. وصوت صاح:

- يجب أن نصعد قبل أن تعيقنا السيول.

الحق أزعجنا المطر وتسلل منا إلى الأجساد على حين غاصت أقدامنا فى الوحل. لم نكف عن الضرب حتى كف العدو عنه مما يقطع بتقهقره. ومضينا فى صعود عسير تكاد تجرفنا السيول حتى بلغنا القمة. أعلن الضابط احتلال الجبل. تسلينا دقائق بمشاهدة آثار قنابل الطائرات.

تلقينا أنباء عن فقد شهداء منهم ثلاثة من المجموعة التى استقلت معى الطيارة رقم ١٤. تذكرت وجوههم وبخاصة أحدهم الذى كان يحدثنا فى أوقات الفراغ بالفصحى متفكها.

- ماذا يصنعون بالجثث؟

فسمعت إجابة مقتضبة لا تخلو من أسى:

- يدفنونها!

ولكن الميت يظل حيا فى وجدان أهله بمصر حتى يبلغهم خبره. وفكرت فى مصر. بكل وجدانى الحزين. من فوق قمة الجبل الأسود وتحت سيل من المطر المنهمر فكرت فيك يا مصر. وسمعت نداء باسمى. وقفنا ثلاثة أمام الضابط:

- كونوا نقطة إنذار على بعد كيلو ونصف.

حددنا الموضع بالقياس الدقيق . حفرنا حفرة سرعان ما امتلأت بمياه المطر . غصنا فيها حتى الرقاب ومعنا جهاز لاسلكى صغير R/06 .

- راقبوا جيدا وعند أى اشتباه نبلغه ثم ننسحب فى ثوان قبل إطلاق النار .

- قد يلمحنا العدو ونحن ننسحب .

- أى تأخير معناه الموت بقنابل جنودنا .

اختص كل منا بناحية والمطر يكاد يجرفنا .

- لكن الجبل ُطهر ، أليس كذلك؟

- الزم الصمت .

ركزت عينى فى المراقبة والمطر ينهلّ بغزارة وقوة لم أتخيلها من قبل .

٤

الأديـــب

غادرنا صنعاء بالطيارة إلى مأرب. من المطار استقللنا سيارة روسى فى حجم لورى متوسط، فى مقدمتها مدفع، لتحملنا إلى القلعة والآثار. قطعت بنا طريقا وعرة متلاحقة العقبات. وكان فى هندستها مرونة لتواجه بها المرتفعات والمخفضات ولكن لم يكن بنا مثل مرونتها. تأرجحنا بقوة وتصادمنا فخففنا البلوى بالفكاهة ما أمكن. اخترقنا أرضا فضاء إلى ما لا نهاية، قاحلة جرداء، إلا من نباتات شوكية موسومة بطابع الهلاك والفناء.

ـ مكان الجنتين خال!

ـ أجل. أين العمران والخضرة أين؟!

ـ وجه الأرض يتغير كوجه الإنسان.

ـ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان.

ـ فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم.

زرنا الآثار القليلة الباقية. عرش سبأ ومقاعد مجلس الحاشية. تكشف عنها وجه الأرض ثم تركت وحيدة وسط يباب يكتنفها من جميع الجهات. وقفنا ننعم النظر وثارت رومانسية الشعراء ولكن ماذا يعنى أى أثر لقوم آتين من بلاد الآثار؟

وذهبنا إلى القلعة. وجدنا حامية مصرية معزولة عن العالم بآلاف السنين. حفروا بئرا ليشربوا، وأقاموا فرنا ليخبزوا، وبدوا كأسرة

مستقلة مكتفية بذاتها ضائعة فى الفراغ. قابلونا بمرح وقدموا لنا الشاى. ولم يكن يصلهم بالدنيا إلا راديو وبعض أفلام قصيرة من مصر. وأشاروا إلى مدينة صامتة مقامة فوق هضبة، مدينة غارقة فى الجمود والصمت.

- مدينة مهجورة، هجرها أهلوها فى أثناء المعارك.

ميتة لا حركة فيها ولا صوت ولا خيال لحى. كانت مقاما للأشراف، وخارج أسوارها عاش الرعاة.

- ثمة مفاوضات معهم وسوف يعودون.

- يا له من منظر، المدينة الخالية. حتى المقابر توحى بطريقة ما بالراقدين داخلها.

- وكيف حال مصر؟

- عال، قلوبها تخفق معكم.

- وكيف حال الأدب؟

وضحكنا. وفى أثناء ذلك جاءونا بنسخ من كتبنا تهرأت من كثرة التداول.

- أنتم لا تتصورون مدى الأثر الذى يحفره فى نفوسنا قراءة بضعة أسطر عن وصف مكان أو عادة أو زمان فى مصر.

حقا لا يمكن أن نتصور. وقال أحدنا:

- ولكن عددكم قليل ومراكز المراقبة معدودة؟

- لا يهم.. أصبحت المنطقة موالية...

تخيلت نفسى مقيما فى هذا الخلاء. يوما بعد يوم، بلا عمل ولا تسلية. وكلما تخيلت عجبت للمرح البسيط الصادق الذى يطالعنا فى الوجوه. وغزانى شعور بالإكبار لا يقاوم.

رجعنا إلى اللورى الروسى. كابدنا الطريق فى الإياب كما كابدناه فى الذهاب. عدنا إلى صنعاء. دعينا إلى زيارة مندوب الحكومة المصرية. جلسنا فى بهو استقبال فخم وشربنا المرطبات. وتكلم أهل العلم عن مستقبل اليمن الواعد بكل خير. عن الشباب الثائر المؤمن بالتقدم. عن التأخر الأسيف المتراكم من أبعد العصور. إيمان المسئولين اليمنيين بوجوب سير الإصلاح جنبا إلى جنب مع الحرب ودون تأجيل. ولدى عودتنا إلى الفندق وجدنا فى انتظارنا وفدا من الأدباء الثائرين. جالسونا على الأسرَّة فشرق بنا الحديث وغرب. وكان لكل منهم مغامرة مع الإمام فراح يروى مغامرته.

الجنـــــدى

غادرنا الجبل على أثر قدوم قوة من المشاة لتحتله. نمت نوما عميقا فى المعسكر. فى الصباح منحنا عطلة قصيرة فقصدت قرية غراز. سرت فى طرقاتها الضيقة فاستقبلنى أهلها ببسمات إنسانية كنت فى نهم إليها. لاعبت الأطفال حيثما وجدتهم. وشربت القهوة فى مقهى ريفى كالكوخ. أذهلنى جمال النساء. جمال العيون بصفة خاصة يبعث الدفء فى القلوب التى أذابها المطر. صادفت فى تجوالى بئرا وقفت حولها أم وابنتاها يملأن الجرار. تلكأت عندهن فنظرت إلى الأم بحنان ذكرنى بأمى التى لم أودعها.

- مصـــرى؟

- نعـم يا خـالة.

- يخليـك لأمـك.

سررت وابتسمت الفتاتان. اجتاحنى شعور عائلى وتذكرت قريتنا بأسطنها. قلت:

- نحن نحبكم.

وإذا بصوت عال يقول فى غير جدية:

- ما شـاء الله!

أديت التحية للضابط فقال مقطبا:

- ماذا تفعل؟.. ألا تعرف التعليمات؟

وابتعدت من فورى والمرأة تقول له شبه غاضبة:

ـ أفزعتـه يا رجـل!

عند الظهر صدرت الأوامر بالتحرك إلى قرية البيضا على بعد ثلاثة كيلو مترات من صعـدا. ولدى مشـارف الموقع الجديد هاجمناه على شكل كماشة تتقدمنا ثلاث عربات مدرعة. وثار الضرب من الجانبين كأعنف ما يكون. اشتد الضرب علينا بغزارة وشت بضخامة القوة التى تتصدى لنا. انطلق الرصاص من مركز المراقبة، من أسوار القلعة، ومن أكثر من كمين، انفجرت قنابل وراءنا وبين صفوفنا. وصدر الأمر بالانسحاب ونحن نقاتل. انسحبنا مقاتلين بعنف. انغرزت إحدى سياراتنا المدرعة فى حفرة وتعذر عليها المسير. انهمر عليها الرصاص كالمطر فلم يجرؤ أحد ممن فيها على رفع رأسه وتوقف الدفاع، أحاط بها العدو من كل جانب ونحن نقاتل مقهقرين لا نستطيع أن نمد لها يدا، ثم أطبق عليها الأعداء بالبلط والخناجر.

ساعات مرت دون أن تتوقف العملية دقيقة واحدة. أنهكنا التعب. قل زادنا من الطعام والذخيرة والماء. وضاعف من إرهاقنا إحساسنا بالقذارة ونحن نتقلب فى الطين. الساعات تمر بثقلها فوق أجسادنا وأرواحنا. وساءلت نفسى حتى متى أحتمل العناء الذى يفوق البشر.

وهتف صوت:

ـ صوت دبابات!

ـ وطـــائرات!

هل جاءت نجدة حقا؟

ارتفعت روحى المتهافتة. اشتد إطلاق النار. دارت الدبابات من حولنا وهى تقذف بقنابلها. ثم دوت انفجارات قنابل الطائرات. تراخت القبضة الخانقة لرقابنا. تحولنا من الدفاع المتقهقر إلى الهجوم.

اقتحمنا البيضا ونحن نتساقط من الإعياء. علمت باستشهاد أحد زميليّ بنقطة الإنذار فوق الجبل الأسود. تذكرت أحاديثنا منذ ساعات عند مشارف قرية غراز. قال إنه رأى وجوها تشبه بعض أفراد أسرته بدرجة مذهلة. اقتنع بأنه ينحدر من أصل يمنى. وقال لى:

- لا تدهش إذا قررت - بعد الحرب - الإقامة فى اليمن إلى الأبد!

٥

الأديـــب

طارت بنا الطائرة إلى تعز . ودون توقع أحد منا وجدنا أنفسنا فى جنة . تهادت بنا السيارة من المطار إلى القصر الجمهورى فى جنة .

ـ ماذا ترون أيها الإخوة؟

ـ سويسرا . . لبنان . . حلم الخيال .

الحقول خضراء ، المراعى خضراء ، الطرقات مجللة بالأشجار ، الحدائق أكثر من البيوت عدا ، سلسلة من الجبال كالأنغام المتموجة مكسوة بالزمرد مزركشة بالأزهار ، الجو لطيف يريق السحر معبقا بشذا الورود والثمار . وصاح صائح مشيرا إلى القمة :

ـ يا له من فندق سياحى !

إنه يلوح كوكر نسر فوق قمة جبل وسيط بين التموجات الجبلية غير أن الدليل قال مصححا بهدوء :

ـ بيت الرهائن ، وهو اليوم خال .

وضحكنا ونحن نتأمله فى أسى . واخترت شاعرا من بين الزملاء وهمست له :

ـ ألا تعذرنى إن طلبت الإقامة فى تعز؟

فأجاب بشىء من الامتعاض :

ـ دلنى على ملهى واحد .

ولما آنس منى دهشة استرد :

ـ دفء الجمال الحقيقى إنما ينبعث من المرأة . . .

ثم بعد دقيقة صمت :

ـ والويسكى . . لا يجوز أن ننسى الوقود .

استرحنا فى القصر الجمهورى ساعة . دعا الداعى إلى التسويق . ذهبنا إلى السوق كل يحمل بدل سفره . وتساءل صوت فى براءة :

ـ أليس من الأفضل أن نحتفظ بالعملة الصعبة لوطننا؟

انهالت عليه مختارات من السباب شعرا ونثرا . تجولنا فى السوق . الوجوه ناضرة جميلة . الحوانيت يديرها غلمان هم آيات فى النشاط والذكاء . اخترنا محلا متوسطا فانقضضنا عليه كمجموعة من الفئران . زاغت الأبصار بين لعب الأطفال والساعات الأتوماتيكية والأغطية والمفارش والبلوزات والإشاربات والشالات . من جميع بلاد المعمورة . وابتاع كل حقيبة متوسطة ليودع بها هداياه . عدنا ولا عملة معنا صعبة ولا سهلة . ذهبنا ـ عقب الغداء ـ إلى ميدان الشهداء لشهود ندوة أدبية . استقبلنا بهتاف واتخذنا مجالسنا وراء مائدة مستطيلة . ازدحم الميدان بالجمهور . استبق الشعراء إلى الترحيب بنا والإشادة بثورتنا . وألقى شعراؤنا قصائد عن العروبة والجهاد والثورة والاشتراكية . وجدتنى طيلة الوقت أقارن بين أحاديثنا الفردية وكلماتنا أمام الجمهور . بين تجوالنا فى السوق وموقفنا وراء المنصة . إن الصوت الذى يتحدث أمام الجماهير هو صوت الجماهير . وخيل إلىّ أننى أدركت شيئا مما ينقصنا . لعله محور التناقض بين ما يقال وما يجب أن يقال . أن نتبنى فى خلوتنا صوت الجماهير . ها هى أشداق مستقبلينا متكورة بالقات إذ قامت الحفلة فى وقت التخزين . هكذا اجتمع خازنو القات بخازنى الهدايا فى سباق الحماس لتقرير المبادئ المثالية للأمة العربية . وعند إبداء ملاحظة من هذا النوع ستسمع من يرد عليك قائلا : «يا أخى . . نحن بشر . . لم نرتكب شرا . . ونحن

مخلصون. . » ولكن أين الروح التى تشعل القلوب؟ . . أين لحظات الانتصار على النفس التى تخلق المعجزات على مدى التاريخ؟ . . ماذا ينقصنا؟ . . لماذا نبقى كأننا متفرجون حسنو النية أمام فيلم يموج بجليل الأحداث؟ . . وخيل إلىّ أن شيئا يتحرك عند ساقى تحت المائدة. طويت طرف الغطاء ونظرت إلى أسفل فرأيت صبية فى الثامنة أو دون ذلك، متلفعة بشال أبيض، تتفرج على الحفل من تحت المائدة، شعرت بعينى فأدارت نحوى عينيها فرأيت وجها صغيرا نقى البشرة يحدق فىّ بعينين سوداوين كأجمل ما رأيت فى حياتى من عيون. وجب قلبى ممتنا لرؤيتها. وفاض به نبع من الحنان والحب. ورفعت عينى إلى قطع السحاب الأبيض المشعشع بنسائم مخضلة برذاذ يجىء قليلا وينقطع قليلا فاطمأن القلب إلى وجود شىء صغير على هامش الجمع، عند ساقى، ولكنه كامل الصدق والنقاء. وسهرنا فى حديقة القصر حتى الهزيع الأخير من الليل. الهواء بارد دسم ولكنه مفعم بالأمان والسحب تبهر العين بضياء القمر. وقال محدثنا:

- المدن معنا، أما الجبال فمارقة ولا سبيل للتفاهم بين الاثنين.

وقلب عينيه فى وجوهنا مستطلعا ثم واصل:

- فإما أن نلتزم موقف دفاع إلى الأبد وإما أن نبيد العدو إبادة!

وقال قائل:

- الإبادة!

وقال آخر:

- الحضارة. . نغزوهم بالحضارة!

وثالث قال:

- نعترف بالواقع!

وتواصل الحديث تحت ضوء القمر. وتجلت لنا الحقيقة صخرية صلبة مستقلة بذاتها عن الأحلام.

الجنـــــدى

إلى وادى نشوز .

تحركنا بالعربات المدرعة R + R شارفنا الوادى . تقدمت دبابتان للاستكشاف تتبعهما مدرعتان للحراسة . دخلنا ممرا ضيقا تقوم على جانبيه هضبتان صخريتان وكنا فى المدرعة عشرة . بعد توغل نصف كيلو متر انهمر علينا الرصاص . تصدت دروع السيارة للرصاص واستمرت عملية الاستكشاف . انحشرت سيارتنا فى مطب أو التحمت بشىء مرتفع فتوقفت . عجزت عن التحرك وضاع كل جهد لتخليصها .

ـ على دبابة أن تدفعنا من الخلف .

ـ ليذهب أحدنا إلى إحدى الدبابتين .

وقعت القرعة على زميل فغادر السيارة ليزحف على بطنه فى الظلام . انتظرنا فى غاية من القلق . وبعد دهر رجع إلينا وهو يقول :

ـ دبابة المقدم مشتبكة فى قتال على بعد خمسة كيلو مترات . أما الأخرى فقد تعطلت !

صعقنا الخبر . وهمس صوت :

ـ نحن عشرة والعدو آلاف .

ـ والعمل ؟

ـ مصير سيارة البيضا !

من داخل السيارة رأينا الأشباح تهبط فى حذر من الجبل . فتحنا سقف السيارة وأخذنا أهبتنا بالبنادق والقنابل اليدوية . طلبنا النجدة

باللاسلكى ولكن الاتصال انقطع. أمرنا أقدمنا فى الخدمة بمغادرة السيارة. مرت لحظات رهيبة ممزقة بالخوف. قاومت موجة من الضحك تريد أن تجتاحنى. وثب أحدنا. تبعناه بلا تردد. نفر من الموت إلى الموت. انهال الضرب. انبطحت على وجهى. استعملت البندقية والقنابل اليدوية. فى هنيهة صمت رفعت رأسى فلم أجد أثرا لأحد من زملائى. دعوت القمر أن يختفى. لم أدر أين أتجه ولا كيف تفرق الزملاء. خيل إلىّ أننى محاصر. اتجهت وجهة بلا خطة ولا علم لى بما ينتظرنى. دهمتنى لحظة مباغتة فوجدتنى حيال ثلاثة أشباح من العدو بلا تدبر أو وعى فتحت الأمان وضغطت على الزناد فانطلقت مطرة من الرصاص خر على أثرها الثلاثة. انطلقت أعدو على غير هدى تحت ضوء القمر. سمعت صوتا ينادينى فاتجهت نحوه بلهفة من يفلت من قبضة الموت. وجدتنى مع مجموعة من الزملاء ماضية فى حذر نحو شبح الدبابة المعطلة. ولما بلغناها صحنا معا.

- افتحوا.. نحن مصريون!

لم نتلق من الداخل استجابة من أى نوع كان. كررنا النداء بلا أمل. يئسنا فدفعنا أنفسنا فى الحشائش متفرقين وأصوات الرصاص لا تنقطع. وأخذ الضرب يخف حتى سكت. نهضت فى حذر مقتربا من الدبابة وهتفت بتوسل:

- افتحوا.. إنى مصرى.. ألا تسمعون؟

ظلت الدبابة غارقة فى صمت متحد مرهق رهيب حتى تطايرت اللعنات من فمى ثم رجعت مغيظا يائسا إلى قبر الحشائش. وإذا بالضرب يتركز على الدبابة كالسيل. مست رصاصة خوذتى فتشهدت. ترقبت الرصاصة التالية بيأس وقهر. هاتف قال لى إننى سأعود إلى مصر. أقسم لى على ذلك.

اشتد الضرب لدرجة غير محتملة. ثم يهدأ ويخف لسبب لا أدريه. لم يبق منه إلا طلقات متباعدة وأنا مغروز بكل قوتى بين الحشائش. وخيل إلىّ أن الظلام يخف ويبهت رويدا. أجل، الظلام يخف رغم اختفاء القمر وراء الجبل. سوف تلوح تباشير الضياء وينقشع الظلام الذى يخفينى عن عين العدو المتربص. سيجدنى صيدا سهلا وسينهال الرصاص الحانق الغاضب علىَّ من جميع الجهات. الصباح يقترب ولا مكان للمعجزات. لعل أمى تصلى فى هذه اللحظة ولكن لا أمل فى المعجزات. واشتد الضرب فجأة. اشتد أكثر من أى وقت مضى. أصبح الضوء يسمح بالرؤية. أقدام العدو تتراجع نحو الجبل والضرب يجىء من الناحية الخلفية. ترامى إلى سمعى صوت دبابة أو دبابتين. جاءت النجدة. إن القذائف تطير فوقى لتنفجر خلف سفح الجبل. لم تدم فرحتى إلا ثانية واحدة ثم تساءلت كيف أعلن عن حقيقتى المدفونة لبنى وطنى؟. كيف أتجنب الموت برصاصهم أو شظايا قنابلهم؟.. أطلقت النار نحو العدو المتقهقر. وتركز الخوف من الموت فيما ورائى. أثقلنى التعب وثقل علىّ بصفة خاصة فوق كتفى اليسرى. وغاصت الأرض بلا سبب واضح. إلى أين تغوص الأرض ولماذا؟.. إننى أهبط فى هوة ثم يرفعنى شىء مجهول إلى أعلى. وعاد ضوء الصباح يضعف بسرعة عجيبة حتى غاب كل شىء فى الظلام.

٦

الأديب والجندى

غادرنا القصر الجمهورى فى الصباح الباكر. والسيارة تميل بنا نحو طريق المطار. اعترض سبيلنا قِطيع غنم ترعاه فتاة.. فتاة جميلة لخص وجهها وقوامها جمال تعز بكافة أشكاله وألوانه. اهتز الشاعر وجعل يهلوس بها بقية الرحلة. عدنا إلى الحديدة. إلى الحرارة الذائبة فى الرطوبة الخانقة. قال:

ـ الارتفاع فى المكان يحدث المعجزات، كذلك الروح فإنها إذا شاءت أن ترتفع فإنها تعانق المعجزات، ما رأيك فى هذه الفكرة؟

قلت:

ـ لخيرك ولخير الشعر لا تكتب إلا عن المرأة!

ودعانا القائد إلى العشاء فوق سطح مسكنه على شاطئ البحر الأحمر. لطف الجو على شاطئ البحر. طاب السمر حول المائدة الحافلة بما لذ وطاب من طعام وشراب. تجاوبت فى الفضاء ضحكاتنا. هل سمعتم نكتة الرجل الذى. هل تعرفون حكاية الزوجة التى، هل وهل وها وها وها. وتنوع الحديث واختلط جده بهزله. وتعدد المتحدثون فى وقت واحد، وانقسموا إلى وحدات مستقلة.

ـ الجبليون أشداء. عندما يحكم على أحدهم بالموت يتقدم إلى السياف مطلق اليدين على مشهد من أهله، لو خاف أو صرخ ركبهم العار إلى الأبد، يحنى رأسه بثبات، يهوى عليه السيف دون بادرة خوف من ناحيته، ينفصل رأسه عن جسده وكأنه رأس رجل آخر.

ـ رجال أشداء حقا، من سلالة غزت العالم ذات يوم، وقوة مدخرة للخير مستقبلا!

* * *

ترى أين تلميذى القديم، جندى المظلات، ماذا يفعل الآن، وماذا يفعل غدا؟

* * *

ـ وينفذون أوامر شيخ القبيلة بلا تردد، فى المعقول وفيما يجاوز أى معقول، حتى الموت نفسه يهجمون عليه دون مبالاة، ويؤمنون بأنهم من طينة غير طينة البشر، وأن الدنيا جميعا تحت وأنهم فوق، كالجبال التى تؤويهم!

* * *

ـ ستعود فرقة من الجنود معنا على ظهر الباخرة.

ـ ما أجمل أن تؤدى واجبك فى حرب ثم تعود إلى الوطن سالما!

ـ الإنسان يحارب منذ وجد على ظهر الأرض، ومن خلال الحرب خلق الحياة والحضارة!

ـ متى انقلبت إلى مارد فلسفى؟

ـ لا فلسفة ولا دياولو، فكرة تذهب بى وأخرى تجىء بى.

ـ سبق أن قلت إنك لم تحارب ولن تحارب.

ـ والحمد لله على ذلك!

ـ ومرة تزوج جندى دون إذن فقدم للمحاكمة وحكم عليه بالحبس سبعة أشهر. ثم أرسل إلى مصر لتنفيذ الحكم ولكنهم أرسلوا معه زوجته اليمنية.

ـ دماغى يدور ويجب أن نتبادل الرأى!
ـ سيتسع المجال فوق ظهر السفينة.
ـ العالم غريب ملىء بالمتناقضات ولا معنى لشىء إذا لم نعرف لماذا نعيش!
ـ شربت أكثر مما ينبغى.
ـ إنى أشرب زجاجة كاملة وأستطيع بعد ذلك أن أحاضر إذا شئت.
ـ متى تجمع محاضراتك فى كتاب؟

* * *

ترى أين ضابط الشئون العامة لأسأله عن جندى المظلات؟

* * *

ـ وتلاقينا مع قوة معادية ولكن حجز بيننا صخرة كبيرة فى ممر جبلى، تحصنت كل جبهة فى مكانها واستحال علينا القتال، دخلنا معركة كلامية، قلنا لهم يا عبدة الإمام يا أعداء الإصلاح فقالوا لنا يا كفرة يا فجرة يا عبدة الشيوعية، ثم تمادينا فى السب والقذف!

* * *

ـ لا أعرف مكانه الآن، اكتب له خطابا وأعدك بإيصاله إليه فى أى مكان فى الميدان.

* * *

ـ هل جربت مواجهة الموت؟
ـ الحياة كلها كفاح وليس الجندى وحده الذى يحارب.
ـ ولكـــن.
ـ سأقص عليك قصة حب عانيتها زمنا، بطلتها فتاة متمردة وحشية،

وسوف تقتنع بأن ما كان بينى وبينها لا يختلف عن القتال فى شىء .

* * *

هل ثمة فرصة لأكتب كلمة سريعة؟

أخى العزيز . .

كم وددت أن أودعك قبل الرحيل . أذكرك بالحب والإكبار وأنا على وشك العودة إلى أرض الوطن . ستعود إليه ذات يوم منتصرا راضيا بإذن الله . اهنأ الآن بأنك تحارب فى سبيل قضية عادلة ، قضية التقدم للإنسان العربى . ومهما تكن العوائق ومهما تكن العواقب فإنك بذرت فى الأرض بذرة من طبيعتها النمو والازدهار . أستودعك الله وإلى اللقاء .

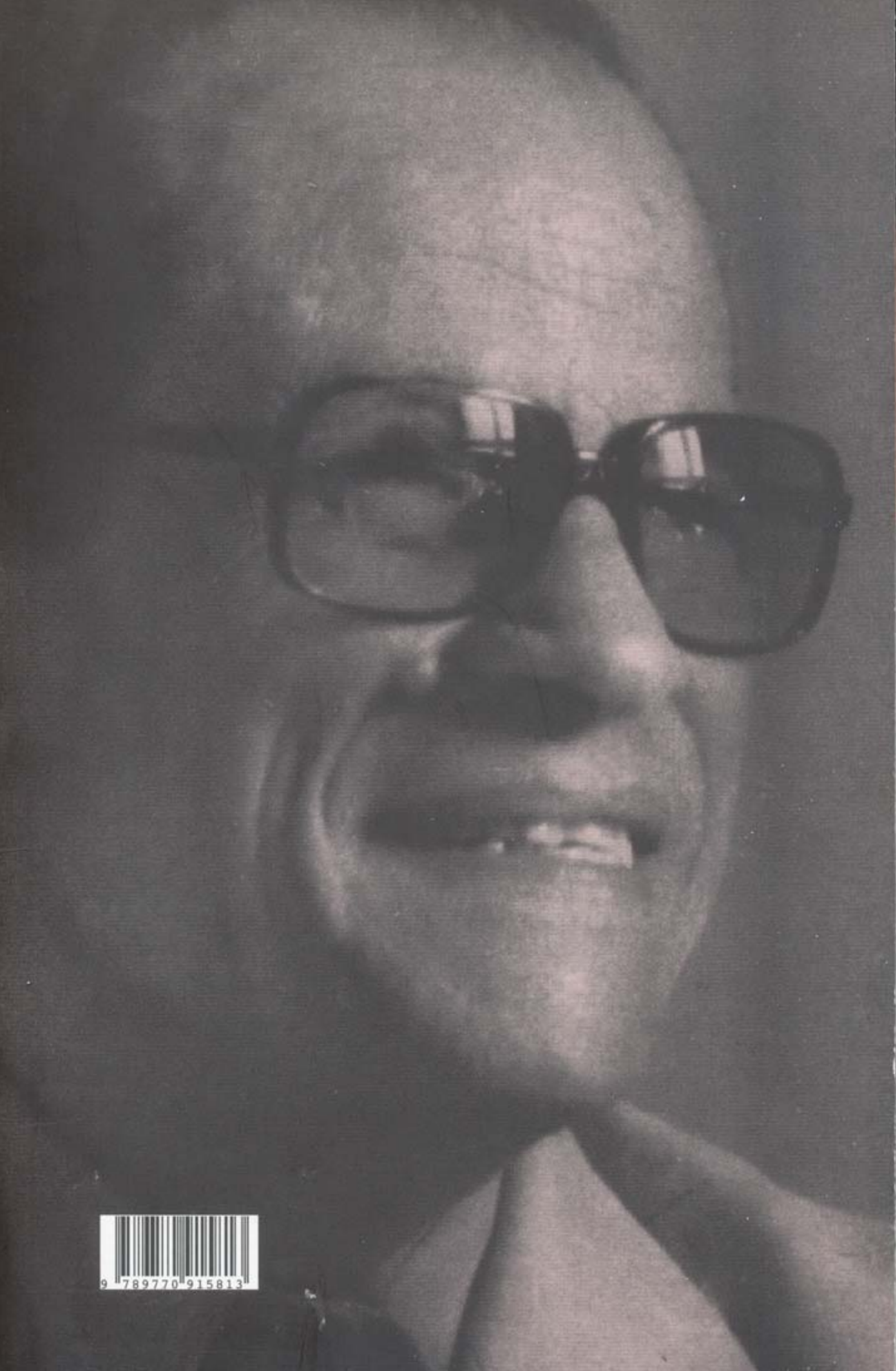
«المخلص»

أعمال نجيب محفوظ

١ ـ	مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ	همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ	عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ	رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ	كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ	القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ	خان الخليلى	رواية	١٩٤٦
٨ ـ	زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ	السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ	بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ	بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ	قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ	السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ	اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ	السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ	دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ	الطريق	رواية	١٩٦٤

١٨ ـ	بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ	الشـــحاذ	روايـــة	١٩٦٥
٢٠ ـ	ثرثرة فوق النيل	روايـــة	١٩٦٦
٢١ ـ	ميـرامـــار	روايـــة	١٩٦٧
٢٢ ـ	أولاد حارتنا	روايـــة	١٩٦٧
٢٣ ـ	خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ	تحـت المظـلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ	حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ	شـهر العســل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ	المــــرايا	روايـــة	١٩٧٢
٢٨ ـ	الحب تحت المطر	روايـــة	١٩٧٣
٢٩ ـ	الجـــريمـة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ	الكـــرنـك	روايـــة	١٩٧٤
٣١ ـ	حكايات حارتنا	روايـــة	١٩٧٥
٣٢ ـ	قـلب الليـل	روايـــة	١٩٧٥
٣٣ ـ	حضرة المحترم	روايـــة	١٩٧٥
٣٤ ـ	الحـرافيـش	روايـــة	١٩٧٧
٣٥ ـ	الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ	الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ	عصـر الحـب	روايـــة	١٩٨٠
٣٨ ـ	أفـراح القبـة	روايـــة	١٩٨١
٣٩ ـ	ليالى ألف ليلة	روايـــة	١٩٨٢

٤٠ ـ	رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ	الباقى من الزمن ساعة	روايـــة	١٩٨٢
٤٢ ـ	أمام العرش (حوار بين الحكام)	روايـــة	١٩٨٣
٤٣ ـ	رحلة ابن فطومة	روايـــة	١٩٨٣
٤٤ ـ	التنظيـم الســرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ	العائش فى الحقيقة	روايـــة	١٩٨٥
٤٦ ـ	يوم قتل الزعيم	روايـــة	١٩٨٥
٤٧ ـ	حديث الصباح والمساء	روايـــة	١٩٨٧
٤٨ ـ	صبــاح الــورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ	قشـــــتمر	روايـــة	١٩٨٨
٥٠ ـ	الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨
٥١ ـ	أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ	القــرار الأخيـر	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ	صــدى النسـيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ	فتــوة العطــوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ	أحـلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤


9 789770 915813